باول شفارتزيناو

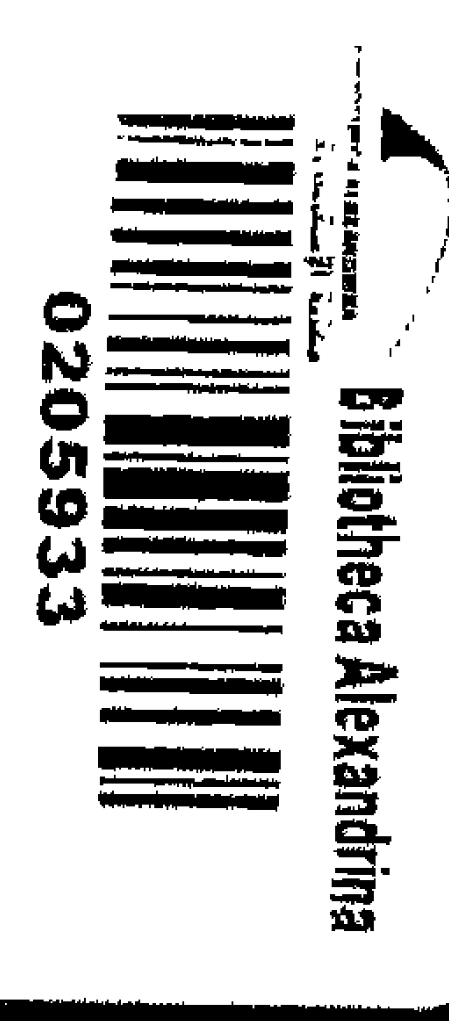
أستاذ الثيولوجيا البروتستانتية وعلوم الأديان
بجامعة دورتموند (ألمانيا)

دروس قرآنية للمسيحيين

مدخل إلى كتاب المسلمين المقدس

ترجمة وتعليق

د. السيد محمد الشاهد



2



Paul Schwarzenau

Korankunde für Christen

Ein Zugang zum heiligen Buch der Moslems

E.B. -Verlag Rissen

دروس قرآنية للمسيحيين

مدخل إلى كتاب المسلمين

باول شيفارتزيناو

باول شبفارتزيناو
أستاذ الثيولوجيا الإنجيلية
وعلوم الأديان بجامعة
دورتموند بألمانيا

دروس قرآنية للمسيحيين

مدخل إلى كتاب المسلمين المقدس

ترجمة وتعليق

د. السيد محمد الشاهد

أستاذ الدراسات الإسلامية بقسم اللغة الألمانية
جامعة الأزهر

الناشـــر
دار قبــاء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)
عبده غريب

الكتـــــــــاب : دروس قرآنية للمسيحيين

المـــــؤلف : باول شيفارتزيناو

تـــــرجمة : د. السيد محمد الشاهد

رقـــم الإيداع : ٢١٦١/٢٠٠١م

الترقيم الدولـى : ISBN
977 - 303 - 324 - 4

تـاريخ النشــر : ٢٠٠١

الناشــــــــر : دار قباء
للطباعة والنشر والتوزيع

الإدارة :

٥٨ شارع الحجاز - عمارة برج آمون

الدور الأول - شقة ٦

☏٦٣٦٢٥٦٢ - فاكس/ ٦٣٧٤٠٣٨

المكتبــــــة :

١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)

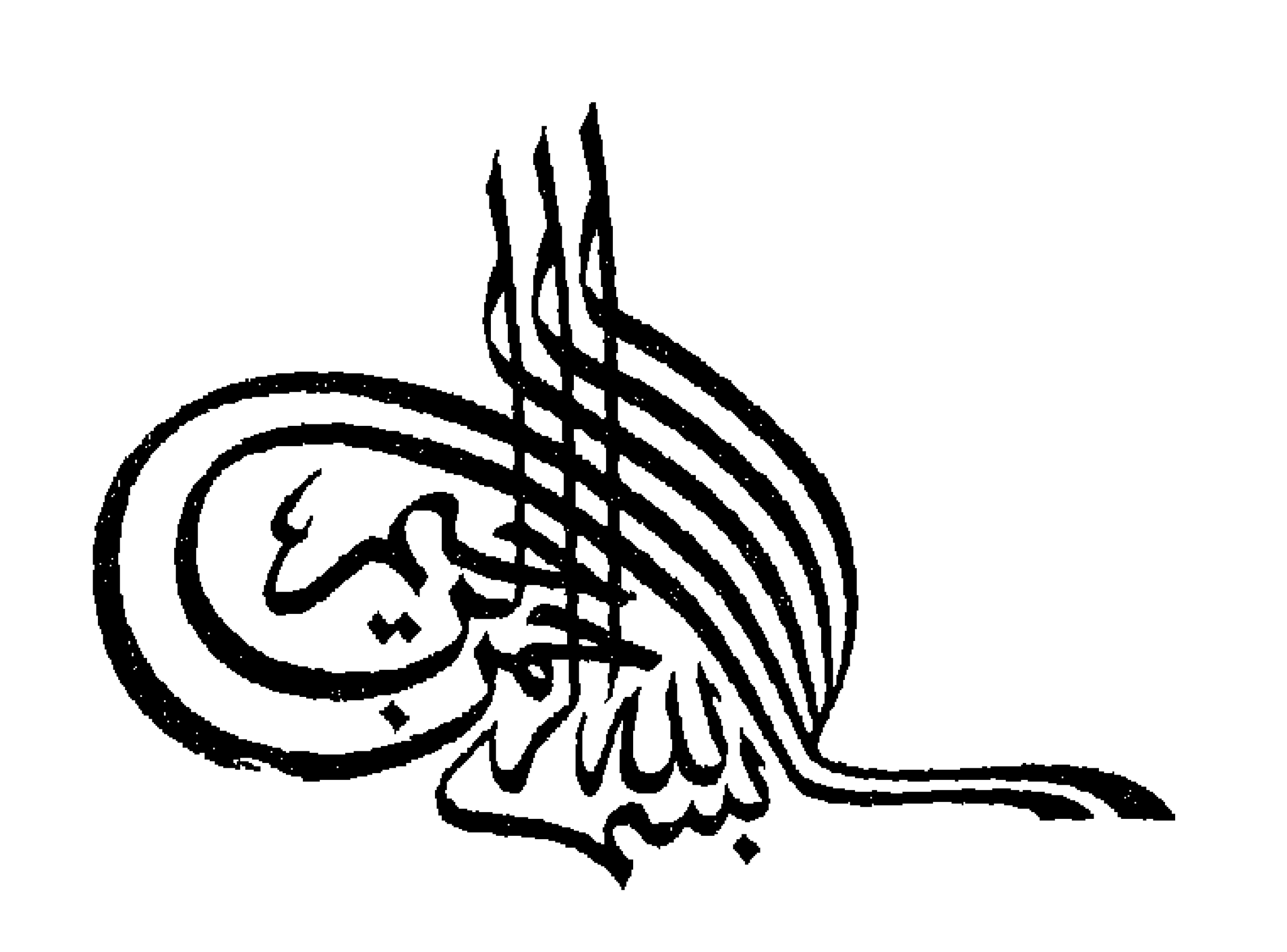
☏ ٥٩١٧٥٣٢ / ✉ ١٢٢ (الفجالة)

المطابــــــع :

مدينة العاشر من رمضان - المنطقة الصناعية (C1)

☏ ٠١٥/٣٦٢٧٢٧

www. alinkya.com/kebaa
e-mail: qabaa@naseej.com





المؤلف والمترجم فى انتظار بداية ندوة للحوار حول (أسطورة الخاتم) التى كتبها
ليسينج ضمن كتابه (ناتان الحكيم) بمدينة فايمر -ألمانيا فى ٢٠/٨/٢٠٠٠م



إذا وصف محمد (ﷺ) بأنه خاتم الأنبياء، فلابد من وصف القرآن بأنه ختام الوحى. إن الوحى القرآنى هو آخر توجيه إلهى للإنسان يفسر ويسيّر التاريخ حسب تعبير ليسينج وانطلاقا من هذا التوجيه بدأت البشرية تتفتح وتستقل بنفسها شيئا فشيئا معتمدة على العقل. القرآن هو آخر كتاب قديم وأول كتاب حديث فى ذات الوقت. فى هذا السياق ينبغى أن تذكر الدفعة التاريخية العظيمة التى أعطاها الإسلام المؤسَّس على القرآن (الكريم) للغرب حتى تمكن من بناء شخصيته الحديثة.






المؤلف والمترجم يستمعان لأحد التعليقات من جمهور الحاضرين بالندوة بعد انتهاء المحاورة بينهما.

Prof Dr Paul Schwarzenau
Lübecker Str. 28
D-44135 Dortmund
Deutschland

Dortmund, den 15 09.1999

Herrn
Professor Dr Elsayed Elshahed
Abd-Al-Rahman-Rafie-Str 46/12
Nuzha - Heliopolis – Kairo
Ägypten

Lieber Herr Professor Elshahed,

haben Sie noch einmal besten Dank für Ihren Telefonanruf vom 14.09.99. Sie überraschten mich darin mit Ihrer Absicht, meine „Korankunde für Christen" ins Arabische zu übersetzen. Sie können sich vorstellen, dass dies eine grosse Freude in mir auslöste Ich sehe darin eine hohe Anerkennung und Ehre.

Zugleich spreche ich hiermit in aller Form mein Einverständnis aus, dass Sie meine „Korankunde" übersetzen.

Ich wüsste niemanden, der dafür befähigter wäre. Ich bin auch überzeugt, dass Sie damit einen wirklichen Beitrag leisten für unsere gemeinsamen dialogischen Ziele und für die Anerkennung Mohammeds als Siegel der Propheten und Ahmed auch in der Christenheit. Sie wissen, wie mir das am Herzen liegt.

Ich hoffe, dass in Kürze mein 2. Aufsatzband bei Bohlau erscheint. Ich werde nicht zogern, Ihnen das Buch sofort nach Erscheinen zu übersenden, in dem ich vom Islam-Kern in allen Religionen spreche

Auf die Trialog-Tagung im Dezember in Köln freue ich mich. Ich sehe mit großer Erwartung Ihren Beiträgen zur Podiumsdiskussion, insbesondere Ihrem Vortrag entgegen

Mit Dank, den besten Grüßen und Wünschen
verbleibe ich

Ihr

Paul Schwarzenau

موافقة المؤلف على ترجمة كتابه المذكور (دروس قرآنية للمسيحيين)

مقدمة المترجم

- حول إشكالية الترجمة

إن نقل نص من لغة إلى لغة أخرى يتطلب شيئاً أكثر من الإلمام أو حتى إتقان اللغتين، المنقول عنها والمنقول إليها، هذا الشيء هو الحس اللغوي الذى لابد من توافره عند كل من يريد التصدي لهذا العمل الشاق والحساس فى ذات الوقت. ويستطيع القارئ أن يكتشف من خلال قراءته لعمل مترجم عن لغة أخرى وجود أو عدم وجود هذا الحس اللغوى عند "المترجم".

إن اشتراط وجود الحس اللغوى عند المترجم يجعل من النقل أو ما اصطلح على تسميته ترجمة، فناً بالدرجة الأولى ثم علماً بالدرجة الثانية، لأن الحس اللغوى موهبة واستعداد فطرى بالدرجة الأولى، مثله مثل أى فن آخر من رسم أو موسيقى ... إلخ. وإن كان هذا الاستعداد أو هذه الموهبة، يقع فى دائرة ما يمكن تحصيله بالمران والتمرس وطول المقام فى الدائرتين اللغويتين والثقافيتين، هذا الشرط يضاف أيضاً إلى من عنده هذا الاستعداد أو هذه الموهبة، فهو شرط ضروري فى كل الأحوال لأن اللغة تعبير لساني عن ثقافة ما وكما تتطور الثقافة تتطور اللغة وإذا تخلفت اللغة عن ملاحقة التطور الثقافي، فإن اللغة تنزوى وتضمر حتى تضيع تماماً. وهذه هى حال كل اللغات القديمة التى لم يعد لها وجود فى الاستخدام اليومي أو العلمى فى دوائر منبعها مثل اللغة اللاتينية أو اليونانية القديمة فى الدائرة الأوربية يضاف إلى ذلك عدد لا يحصى من اللغات الآسيوية والإفريقية التى لم يعد لها أى أثر يذكر أو يذكّر حتى باسمها. وقد تعيش الثقافة بدون لغة بالمعنى الاصطلاحى الخاضع لقواعد نحوية محددة كأكثر اللغات الإفريقية والهندية والتى يعكف بعض الباحثين فى بعض جامعات أوربا على دراسة مفرداتها ومحاولة تقعيدها وصبها فى قوالب نحوية حتى يمكن تعلمها، ومن ثم انتشارها، وتكون بذلك مفتاحاً للتعرف على ثقافة الناطقين بها. وهناك بعض اللغات التى لا يمكن لإنسان غريب عنها أن ينطق ببعض حروفها فضلاً عن استحالة كتابتها، وهذا المجال هو مجال علم الصوتيات (Phonetic) وهو الممهد الرئيسى لدراسة

ومن ثم فك رموز هذه اللغة بالمعنى العام لكلمة لغة.

لا أريد الاستفاضة والتطرق إلى تفاصيل هذه الإشكالية التى تستحق بحثاً مستقلاً لعلى أوفق فى وقت لاحق إلى تحقيقه لأننى أعتبر هذه الإشكالية من أهم إشكاليات الاحتكاك الثقافي وإشكالية التأثر والتأثير الثقافيين بشكل عام.

إننى أميل إلى التفرقة بين مصطلحين متداخلين فى الاستخدام العلمى فضلاً عن العام. وهما مصطلح "الترجمة" ومصطلح "التعريب".

فالترجمة فى نظرى هى محاولة لنقل الروح والإطار اللغوى بكل تفاصيله التى تشمل أسلوب التعبير والبنية اللغوية لنص ما من لغة إلى لغة أخرى.

أما التعريب فيقتصر فيه النقل على الروح أو الفكرة الأساسية لنص ما مكتوباً بلغة ما وإعادة صياغتها وضغطها داخل الإطار اللغوى والتعبيرى فى لغة أخرى.

ويستطيع القارئ العادى أن يفرق بين النوعين من النقل، فهو يشعر بأنه يقرأ نصاً منقولاً عن لغة أخرى بمجرد قراءة بعض الجمل أو الفقرات القصيرة، لأنه يصطدم بتراكيب تعبيرية (بنية الجمل) غريبة عن لغة الأم إذا كان النص المنقول هو نص مترجم روعيت فى نقله أقصى درجات الأمانة الممكنة.

أما إذا كان النص معرباً فلن يتمكن القارئ من معرفة ما إذا كان النص الأصلى مكتوباً بلغة أخرى غير اللغة التى يقرؤها، لأن الذى نُقل ليس النص بل الفكرة أو الأفكار الأساسية أو حتى التفصيلية التى دار حولها النص، بل قد يصل الأمر إلى إثارة الشك فى قلب القارئ حول درجة الأمانة فى النقل للأفكار أو الاتجاهات الفكرية الواردة فى النص الأصلى ومن ثم احتمال تطويع النص المنقول قلباً وقالباً، وهذا ما يطلق عليه فى النقد العلمى(Text manipulation).

أما فى حال الترجمة، إذا غضضنا النظر عن إمكانية تحقيقها أصلاً، فإنها محاولة لنقل النص بكامله شاملاً التفاصيل والبنية اللغوية والسياق وأسلوب التعبير من اللغة الأصلية إلى اللغة المضيفة. ورغم الإيجابيات الكثيرة التى تحملها الترجمة بهذا المعني إلا أن لها من السلبيات ما لابد من اعتباره، وإن كانت معظم

هذه السلبيات تدخل فى إطار الجمال اللغوى، فتأتى النصوص المترجمة خالية أو تكاد تخلو مما يؤثر فى القارئ ويجعله يقرأ النص إلى آخره. لأنه فضلاً عن غرابة التركيب اللغوي للنص المترجم فإنه قد يحمل تصورات فكرية داخل تعبيرات لغوية تثير فى نفس القارئ ما قد يصطدم بمسلماته الفكرية أو العقدية، والتى قد لا يقصدها المؤلف الرئيسى للنص الأصلى، فقد يترتب على ذلك أن يزهد القارئ فى النص فيتركه جانباً ويبحث عن نص معرَّب إن لم يصل الأمر إلى إصدار حكم غير عادل على اتجاهات بل ونوايا المؤلف والمترجم أيضا فى بعض الأحيان. لأن استكمال قراءة نص مترجم روعيت فيه الأمانة اللغوية والفكرية ونُقلت فيه خصوصيات البنية التعبيرية للمؤلف ولغته الأم يتطلب صبراً وإصراراً من جانب القارئ على تحصيل ما تضمنه النص الأصلى، وقد يرى فى ذلك إثراءً لمعارفة عن طريق التعرف على أساليب وقوالب لغوية جديدة.

وثمة أثر آخر يظهر فمن اعتاد قراءة النصوص المترجمة وكذلك وبدرجة أكبر عند من اعتاد يشعر على قراءة الأبحاث العلمية فى لغتها الأصلية أو سماعها إذا كانت محاضرات أو تسجيلات صوتية.

ويظهر هذا الأثر بعد فترة فى أسلوب تعبير هذا المثقف فتأتى تعبيراته اللغوية بلغته الأم غريبة فى تركيبها ومفرداتها، حيث ترد كلمات غريبة كثيرة أو كلمات عربية غير مألوفة فى الاستخدام العلمى أو العام المعروف فى دائرته الثقافية. مما قد يثير بعض التحفظات على شخصية المترجم بل وانتماءاته الفكرية والعقدية. ورغم كل هذه السلبيات فإننى شخصياً أفضل الالتزام قدر الإمكان بقوالب وقواعد وبنية وسياقات اللغة الأم للنص الذى أنقله إلى اللغة العربية متوخياً فى ذلك أقصى درجات الحذر والحرص على أن يكون النص المترجم فى أفضل بنية لغوية ممكنة ومستساغة قدر الإمكان.

- **المؤلف والكتاب**:

البروفسيور باول شفارتزيناو هو أحد أبرز علماء الدين المسيحي البروتستنتى المعاصرين، يتميز بجرأة علمية نادرة قد لا يدانيه فيها أحد المبرزين من المفكرين المعاصرين. ويتمثل تميزه عن الآخرين في الكم الهائل من المعلومات الموثقة التى يضمنها أبحاثه وبصفة خاصة أبحاثه التى تتعلق بالديانات غير المسيحية وأهمها بالنسبة لى"الإسلام".

بنيت جرأته وتميز على أساسين هما :

أولاً: سعة اطلاعه على أصول الديانات الأخرى فضلاً عن الدين المسيحي واليهودي الذى شكلت تخصصه الرئيسى بصفته أستاذ العلوم الدينية المسيحية بجامعة دور تموند بألمانيا.

ثانياً: إتقانه وإلمامه بعدد كبير من اللغات غير الألمانية ومنها اللغة العربية فى عام ١٩٩١ التقيت به لأول مرة دعاني إلى منزله فى مدينة دورتموند ثم التقينا معاً فى بيت البروفسيور بيتر أنتيس أستاذ العلوم الدينية فى جامعة هانوفر بألمانيا ثم تعددت لقاءاتنا فى كثير من مؤتمرات حوار الديانات والحضارات التى عقدت فى ألمانيا. التقينا آخر مرة فى مؤتمر عقد فى مدينة فايمر بالجزء الشرقى من ألمانيا (ألمانيا الشرقية سابقا) وتناقشنا حول بعض الصعوبات التى واجهتنى أثناء ترجمة كتاب القيم الذى يسعدني تقديمه الآن للقارئ العربى ليتعرف على جانب هام من شخصية هذا المفكر الديني الفذ، وأول هذه الصعوبات كانت تتمثل فى عنوان الكتاب ذاته.

فالترجمة الحرفية للعنوان كان ينبغى أن تكون "علوم قرآنية للمسيحيين" "Korankunde fuer Christen". إلا أن محتوى الكتاب وموضوعه الرئيسى بل والوحيد لا يتضمن ما يفهم تحت كلمة "علوم" لأن علوم القرآن الكريم تتضمن كما هو معروف كل ما يتعلق بالنص القرآنى من ترتيب للسور وترتيب للآيات وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ والقراءات وإعراب القرآن وشكل إعراب القرآن وغريب القرآن والتفسير اللغوي للنص القرآني وإلخ. أما الكتاب موضوع

الترجمة فيدور فى أساسه حول إبراز نقاط الاتفاق بين القرآن الكريم والكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، والتأكيد على أن القرآن الكريم هو أول وآخر الكتب السماوية التى أخذت عن اللوح المحفوظ. ثم يتعرض إلى الإشارات التى وردت فى العهد القديم والجديد إلى الرسالة الثالثة أى رسالة الإسلام، وكذلك إلى شخصية بل واسم الرسول الخاتم محمد (ﷺ). ويؤكد المؤلف أن محمداً (ﷺ) هو المقصود والمشار إليه فى العهد القديم "بموسى الثانى"، وأن الإسلام هو مملكة الله الثالثة وهى مملكة العقل أو الروح التى وردت مراراً فى العهد القديم.

ثم ينتقل إلى مناقشة الاختلاف بين القرآن الكريم والعهد الجديد فيما يتصل بعقيدة صلب المسيح (عليه السلام)، ويبرز بشكل خاص المواضع التى تؤكد أنه لم يصلب يقيناً، وأول من شك فى ذلك الرجال الذين أرادوا لعيسى (عليه السلام) أن يصلب وأورد على لسانهم قولهم "إن الرأس هى رأس عيسى أما الجسم المصلوب فليس جسم عيسى "وكذلك قولهم" إذا كان الشخص المصلوب هو عيسى فأين صاحبنا؟"أى الذى دلهم على عيسى ليقبضوا عليه. بذلك يتضح عدم تطابق موضوع الكتاب مع ما يفهم من عقدائه إذا ترجمه حرفياً. لذلك ناقشته فى إمكانية ترجمة كلمة "Korankunde" إلى "دروس قرآنية" وليس "علوم القرآن " وقد اقتنع المؤلف البروفيسور شفارتزيناو بهذه الترجمة ووافق عليها(*).

ثم كانت مشكلة أخرى نتجت عن استخدامه لنظرية الصور أو النماذج الأولية (Urbilder) أو كما يعبر عنها صاحب النظرية "كارل جوستاف يونج" بـــ"النماذج الأولى" (die Archetypten). أعنى استخدام هذه النظرية النفسية الفلسفية فى تفسير الوحى الذى نزل على الرسول محمد (ﷺ). وما يمكن أن يؤدى إليه من سوء فهم يتمثل فى أن تلك النماذج الأولية موجودة بالفعل فى أعماق الذات الإنسانية، فى اللاوعى، أى أن الإنسان العادى لا يمكنه معرفتها. أما الأنبياء والرسل فإن الله يكشف لهم حيث النماذج الأولية ويخرجها أمامهم إلى الوعى فكأنهم يرونها أو يسمعونها لأول مرة. أما مصدر هذا النماذج أو الصور الأولية

(*) نشرته دار النشر إى ب بمدينة ريسّن - ولاية هامبورج بألمانيا - الطبعة الثانية عام ١٩٩٠م.

فهو الله عز وجل حيث "علم آدم الأسماء كلها"، والأسماء هنا تقابل النماذج أو الصور الأولية أو العلم الإلهى الذى أودعه الله فى قلب آدم وانتقلت منه إلى نسله ورغم أن هذا الفهم يختلف كثيراً عن الفهم الإسلامى للوحى إلا أن الذى أكد عليه المؤلف هو أن الخلط بين هذا الفهم وتصور أن الوحى ليس سوى عملية ذاتية يقوم بها الإنسان بنفسه عندما يحاول تكشف أعماق ذاته هو فهم خاطئ. لأن القدرة على الغور فى أعماق الذات موجودة عند كثير من البشر إلا أنهم لم يصبحوا بذلك أنبياء. لأن النبوة هنا تعنى أن الله هو الذى يظهر هذه الحقائق ويكشفها أمام عين النبى. فثمة فارق أساسي بين الوحى الذى يأتى به الله وبين عملية الاستيطان الذاتى الذى يأتى عن طريق التأمل والتفكر. لأن التأمل والتفكر ينتج فكراً لاوحياً. كما يؤكد المؤلف فى الكتاب وكذلك فى مقدمته للترجمة العربية أن النبى محمد لم يضف كلمة واحدة من عنده إلى نص القرآن الكريم.

كما يتميز هذا الكتاب بكثرة الاقتباس والاستشهاد بالآيات القرآنية فى كل مناسبة تستلزم ذلك مشيراً إلى الترجمة التى استعان بها وبعض كتب التفسير إلى جانب بعض الأبحاث العلمية الحديثة التى تتصل بموضوع الكتاب مباشرة سواء من المسلمين أو غير المسلمين.

وينهى المؤلف كتابه بدعوة إلى التأخى والاعتراف المتبادل بين الديانات السماوية الثلاثة وأنبيائهم موسى وعيسى ومحمد (عليهم الصلاة والسلام).

بدأ المؤلف باول شفارتزيناو كتابه بوقفة أمام القرآن الكريم ومحاولة فهم رسالته الأساسية محاولاً ربط سياقاته واكتشاف الخيط الذى يربط سوره وآياته التى تبدو لمعظم الناس وكأنها خليط من الموضوعات المختلفة غير المترابطة ويصف القرآن الكريم بأنه مثل قطعة الكريستال التى تضىء فى كل الاتجاهات بألوان مختلفة لكنها واحدة فى أصلها ومترابطة. ولا يكتشف هذا الترابط سوى من اجتهد فى قراءته كله ومحاولة الغور فى أعماقه حيث يفاجأ الإنسان بترابط تام وتناسق عجيب لا يجده الإنسان فى أى كتاب سواه. وينبه المؤلف إلى أن من يريد قراءة القرآن وفهمه لابد له من أن يترك المقارنة بينه وبين الكتاب المقدس لأن الكتاب المقدس يتضمن روايات كاملة وكأنها قصص، أما قصص القرآن الكريم

فتتميز ببيئة خاصة تتطلب تعمقا وتدبراً لآياته لاكتشاف الروابط التى تربطها بمواضع أخرى ولمعرفة المراد بها فى كل موضع، حيث هناك حكمة إلهية فى قطع الحديث حول موضوع ثم استكماله فى موضع أو مواضع أخرى، ويتطلب ذلك مهارات خاصة إلا أن من يصل إلى هذه الدرجة من الفهم سوف يشعر بعظمة هذا القرآن وتميزه المعجز. ويفسر المؤلف الحجر الأسود تفسيراً رمزياً لأقصى درجة إلا أنه منطقى ويقبله العقل، ويميل المؤلف فى هذا الفصل (الثانى) إلى التفسير التصوفى الرمزى العميق. ثم يتحدث فى الفصل الثالث عن شخصية الرسول (ﷺ) ويركز على تميزه عن غيره فى كل شىء تقريباً سوى البشرية ويفصّل الحديث عن صفاته (ﷺ) ثم بعثته ثم علاقاته بمن أسلمه وعلاقاته بغير المسلمين فى المدينة حيث أورد ترجمة رائعة لملخص من "صحيفة المدينة" التى أملاها الرسول فى المدينة ونظم فيها العلاقات الداخلية والخارجية بين المسلمين وغيرهم، ويصف المؤلف هذه الصحيفة بأنها تعبير وتجسيد لتسامح الإسلام مع غير المسلمين وقد اعتمد فى هذا الفصل على كتب السيرة وأهمها "سيرة ابن اسحق" وهذا ما يميز المنهج العلمى الدقيق للمؤلف حيث يرجع إلى المراجع العربية ولا يعتمد فى بحثه على ما كتبه المستشرقون. وكان مرجعه الأساسى فى هذا الكتاب هو القرآن الكريم كتب التفسير الإسلامية القديمة والحديثة.

ثم ينتقل المؤلف إلى الحديث عن مفهوم الألوهية ولفظ الجلالة وبين ما جاء به التصور الإسلامى ليصحح المفاهيم الخاطئة للألوهية والعبادة بشكل عام.

ثم ينتقل إلى الحديث عن الرسل جميعاً ويستقرئ القرآن الكريم ليستخرج منه ما يتفق وما يختلف مع التصورات الموجودة فى الكتاب المقدس.

ثم يأتى حديثه عن عيسى (عليه السلام) معتمداً أولاً على ما جاء فى القرآن الكريم فى مختلف سوره متتبعاً سيرته منذ حملته مريم (عليها السلام) وكيفية ولادتها له، ويركز على ربط ما جاء فى القرآن الكريم فى هذا الشأن من أن عيسى (عليه السلام) كلمه الله ألقاها إلى مريم وهى روح منه (تعالى) ويظهر الفارق بين التصور المسيحى للكلمة (Logos) والتصور الإسلامى الذى ورد فى القرآن الكريم وهى كلمة "كن". وأهم ما ورد فى هذا الفصل هو تركيز المؤلف على أن

عيسى (عليه السلام) لم يكن سوى "عبد الله ورسوله" مؤكداً ومستشهداً على صحة ما جاء فى القرآن بما ورد فى الكتاب المقدس (الأناجيل) من أن عيسى نفسه لم يدَّعِ غير ذلك. وأن ما طرأ بعد ذلك كان بفعل مؤثرات خارجية سابقة ولاحقة. ويختم المؤلف هذا الكتاب القيم بفصل عن خاتم الأنبياء محمد (ﷺ) مؤكداً صدق نبوته وأصالة رسالته، وأنه خاتم الأنبياء، وأن القرآن الكريم هو أول كتاب سماوي وآخر كتاب ينزل به الوحى من اللوح المحفوظ وأن رسالة الإسلام هى المكمِّل والمتمم لما بدأ به الوحى على سيدنا موسى ثم على عيسى (عليهما السلام).

فالحقيقة المطلقة الكاملة كامنة فى هذه الرسالات الثلاثة المتكاملة. ويذكر فى هذا السياق ما ذكره المفكر الألمانى الكاثوليكى "ليسنيج" فى كتابه "ناثان الحكيم" حيث حاول عرض هذه الديانات الثلاثة على هذا النحو التكميلي كما فهمه المؤلف وإن كنت أختلف مع المؤلف فى تفسير تصور ليسنيج الذى عرضه من خلال ما يسمى أسطورة الخاتم (Die Ringparabel).

يقول الناشر عن مؤلف الكتاب بأنه صنع من نفسه مدافعاً عن الإسلام واستخرج الشبهات التى أثيرت فى الغرب حول القرآن ورد عليها. وأنه من خلال تعمقه فى البحث فى الديانات وحواراته مع غير المسيحيين أصبح يملك فهماً عميقاً متميزاً لدينه (البروتستنتية المسيحية). وينطبق ذلك بشكل خاص على علاقته بالإسلام الذى يشترك مع اليهودية والمسيحية فى ذات المصدر (الإلهى).

والمؤلف كان أستاذاً للعقيدة الإنجيلية (البروتستنتية) ومناهج التدريس مع تخصص رئيسى فى العلوم الدينية بجامعة دور تموند بألمانيا ولد فى ١٩ سبتمبر ١٩٢٣.

كانت أول مؤلفاته دراسة بعنوان "مشكلة المسيح عند مارتن بوبر– دراسة فى تاريخ اليهودية" ألفها فىعام ١٩٥١ إلا أنها نشرت فقط قبل ثلاثة أعوام (١٩٩٧) وحصلت على الجائزة التقديرية من الجامعة التى كان يعمل بها قبل بلوغه سن التقاعد.

بعد انتهائه من دراسته الجامعية عُيِّنَ راعياً روحياً للطلبة فى فترة كانت

تتميز بالتوتر بين الشباب حتى عام ١٩٧٠ حيث حدث تطوير أساسى لنظام التعليم الجامعى. وعندما بلغ سن الخمسين أصبح أستاذ كرسى الثيولوجيا وتاريخ الأديان فى كلية التربية فى منطقة الرور (شمال غرب ألمانيا) إلا أنه لم يحصر نشاطه التدريسى على تخصصه الرئيسى بل اهتم بما يمكن أن يسمى فلسفة التاريخ فجاءت سلسلة محاضراته تحت عنوان "نقطة التحول فى التاريخ العالمى" وقد بدأ هذه المحاضرات فى صيف عام ١٩٧٢ والتى كان يواظب على حضورها عدد كبير من أساتذة الثيولوجيا والعاملين فى مجال الرعاية الروحية (القساوسة) ثم توالت مؤلفاته القيمة التى كانت تمثل تطوراً فريداً فى قراءة تاريخ الأديان، والتاريخ العالمى، منها على سبيل المثال: علم النفس الدينى والاجتماعى، "الديانات العالمية الكبرى"، الفكر التاريخى لـ"روزينشتوك هويسي"، "كتب الفيدا والكتاب المقدس والقرآن"، "نماذج أساسية للتجربة الدينية"، "باولوس والباجافادجيتا"، "البوذية والمسيحية"، "حركات روحانية (صوفية) جديدة"، الحوار بين اليهودية والمسيحية- نموذج مارتن بوبر"، "الهندوسية والكونية الصينية"، "الإنسان بصفته كائناً رمزياً من خلال مثال الطفل الإلهى"، "أسئلة أساسية عن المصدر الدينى للديانات- الديانات القبلية"، المسيحية وخلفية تاريخ الدين"، "الصليب- التعاليم السرية لعيسى"، "قطع من الزجاج – قصة مهشمة"، إضافة إلى عدد هائل من المقالات والأبحاث العلمية القيمة المنشورة فى كثير من المجلات العلمية المتخصصة فى الثيولوجيا وتاريخ الديانات والحوار الدينى.

ويعتبر باول شفارتزيناو أحد أشهر علماء اللاهوت المسيحى المؤسسين والدافعين لعملية الحوار الدينى والحضارى فى ألمانيا فهو أكبر مؤسسى جمعية الديانات العالمية ومقرها مدينة كولن بغرب ألمانيا (Interreligioese Arbeitsstelle) والتى تُصدر تحت إشرافه المشترك مع راينهارد كيرسته وأودو تفوروشكا مجلة "ديانات فى حوار" "Religionen im Gespraech" وهى مجلد من الحجم الكبير يصدر كل عامين ويضم أبحاثا علمية متخصصة تخدم قضية الحوار الدينى بين الديانات العالمية وخاصة اليهودية والمسيحية والإسلام وقد صدر منها حتى الآن ستة أعداد آخرها جاء بعنوان "إرهاصات أمل فى مجتمع كونى"

(Hoffnungszeichen globaler Gemeinschaft) وقد كان لى شرف المشاركة بأبحاث مختلفة فى معظم أعداد هذه المجلة إضافة إلى مشاركتى ببحث تحت عنوان "تعالوا إلى كلمة سواء- عرض إسلامي للسلام" فى الكتاب التكريمى الذى صدر تكريماً له بمناسبة بلوغه سن ٧٥ عاماً فى ١٩ سبتمبر ١٩٩٨. وكان عنوان هذا الكتاب "كل الماء يصب فى البحر- قوة الديانات التى تتخطى الحدود".

وفى ختام هذه المقدمة أود أن أشير إلى أننى حرصت على نقل النص الألماني إلى اللغة العربية دون المساس بأسلوب التعبير فى اللغة الألمانية، حرصاً على تقديم النص فى أقرب صورة ممكنة للأصل الألماني ولم أقُم بأى تغيير فى هذا الصدد من أجل إخراج النص فى لغة عربية مألوفة على حساب أسلوب التعبير المألوف فى اللغة الألمانية، لأننى أرى أن أية محاولة لتطويع النص الألماني لأساليب التعبير العربية يخرج هذا العمل عن كونه ترجمة لنص غير عربي ويجعل منه تعريباً وليس ترجمة. وأسأل الله العلى القدير أن أكون قد وفقت إلى بلوغ ما قصدت إليه بهذا الجهد المتواضع.

د. السيد محمد الشاهد

مقدمة المؤلف للترجمة العربية

أ. د / باول شفارتزيناو

مقدمة للترجمة العربية لكتابي "دروس قرآنية للمسيحيين"

إنه لشرف عظيم لى وسعادة أن قرر الأستاذ الدكتور/ السيد الشاهد – الأستاذ بجامعة الأزهر – القاهرة، ترجمة كتابى "دروس قرآنية للمسيحيين" إلى اللغة العربية. لغة القرآن المعظم. والذى يربط بينه بصفته مسلماً وبينى بصفتى مسيحياً هو التبجيل للقرآن وتكريم النبى محمد (ﷺ). وفى ذات الوقت أشترك معه فى الرأى أن القرآن لم يكن فقط بالنسبة للمسلمين بل وأيضاً بالنسبة لأهل الكتاب، كتاباً نقدياً يكشف (يظهر) لب الإسلام الأصيل الموجود فى كل الديانات التى جاءت بها رسل الله جمعياً. إنه إسلامى عالمي يربط بين كل من أنزل إليهم كتاباً سماوياً. هذه الرابطة التى أظهرها الإسلام تجعل من النبى محمد رسولاً إلى كل أتباع هذه الديانات وبصفة خاصة الديانات التى تنسب على إبراهيم (عليه السلام) أى اليهود والمسيحيين إلى جانب المسلمين الذين اتبعوا الإسلام بالمعنى التاريخى (أى رسالة النبى محمد ﷺ).

ولأننى كتبت "الدروس القرآنية" بداية للقراء المسيحيين فقد ضمنته الرجاء الذى طالبت به إخوانى فى الدين المسيحى وبصفة خاصة الكنيسة المسيحية ويتضمن هذا الطلب الإعتراف بالنبى محمد واعتباره رسولاً حقيقياً مرسلاً ضمن رسل الله الأنبياء وأنه جاء للمسيحيين أيضاً برسالة هداية.

وحول رسالة النبى محمد وعلاقته الحميمة والأخوية بالرسول عيسى المولود فى الناصرة سوف أتحدث بالتفصيل فى الموضع المناسب من كتاب دروس قرآنية. إن الاعتراف بنبوة محمد والتى أطالب بها موجودة فى جذور المسيحية وفى تعاليم الرسل التى ذكرت فى القرآن. وأتحداهم (فى ذلك) تحديداً بما جاء فى أسرار المستقبل (النبوءات) المسيحية.

ومع أن كتاب الدروس القرآنية كان قد كتبت بداية للمسيحيين إلا أنه استطاع فيما بعد أن يكسب أصدقاء كثيرين من المسلمين المتحدثين باللغة الألمانية،

وهذا ما ثبت لى شفهاهة وكتابة مرات عديدة. وإذا كانت لهذه (الدروس القرآنية) أن تنشر بلغة النبي، باللغة التى يتحدثها العالم العربى فإننى أود أن أبعث مع تحيتى الموجهة إلى قرائى الجدد من العرب من خلال هذه المقدمة إيضاحاً للنقطة المحورية التى تخص ذات (هوية) الوحى وكيفية نزوله على رسول الله حسب تصورى. وأقصد هنا تحليل السيكولوجية الباطنية الذى جاء به كارل جوستاف يونج وسوف أشير إليه كثيراً عن قصد فى "الدروس القرآنية" واضح تعلقه بالوحى القرآنى على النحو الذى تلقاه النبى محمد.

قد يظهر الانطباع بأن اللاوعى لدى النبى محمد كان هو مصدر كلام الله الذى تضمنه القرآن بمعنى أن مصدر الوحى لم يكن إليها خارجاً عن ذواتنا بل هو فى أعماق النفس (الذات). إلا أن هذا الفهم خاطئ سواء بالنسبة لمعنى الوحى أو بالنسبة إلى نظرية السيكلوجية الباطنية عند يونج وبالتالى بالنسبة لمعنى "الصورة الأولى" التى اكتشفها والتى سماها "الصورة الأولية للاوعى الجمعى".

إنه لخطأ جسيم وخيم العواقب يمكن أن تؤدى إليه عبارة سيكولوجية اللاوعى، إذا افترضنا أنها تعنى وجود الصور الأولية أو النماذج الأولى داخل النفس الإنسانية فالأصح أنها على العكس من ذلك، أى أن النفس الذاتية (الفردية) هى التى توجد داخل عالم الصور الأولية. لذلك يصف يونج أيضا الصور الأولية بالذات الخارجية (transsubjektiv) وأيضاً الموضوع الخارجى (transojektiv). بمعنى انه حينما يدخل النموذج الأوّلى للعالم إلى النفس الإنسانية، أى يظهر فيها، يشكل لذلك بالنسبة للنفس الذاتية (موضوعاً) خارجياً. بهذا المعنى لا يكون العالم النموذجى (الأول)، حسب التعبير بالإنجليزية، "مع نفسى" بل "داخل نفسى".

وينبغى هنا التنبيه إلى محدودية فى تصورات يونج، والتى يشارك فيها علم الفلسفة وعلم النفس الغربيين. وتشير (الباحثة) مارتينا فاجنر- شتراتمان (Martina Wagner- Stratmann) بحق فى كتابها "ك. ج. يونج وحكمة الشرق- ١٩٩٠" إلى أن يونج الروح (Geist) والنفس (Seele) شيئاً واحداً. وبذلك تبتلع النفسُ الروح. وهنا تكمن أعمق المشكلات التى لم تقع فيها سيكلوجية يونج فقط بل وكل (النظريات) الغربية. إن الغرب يعتبر عادة أن الروح هى أعلى قدرات النفس، وبذلك تكون جزءاً من النفس. لقد فقد الفكر

العربى الحديث القدرة على تصور مجال خاص بالروح وبالأشياء الروحانية (الملائكة والأرواح)، أما بالنسبة إلى الشرق فقد كانت الروح دائماً على العكس من ذلك، حقيقة ميتافيزيقية وميتاسيكولوجية مستقلة وبهذه الصفة اعتبرت الروح وسيلة للمعرفة الدينية. يبدو أن اللاوعى الجمعى الذى بحثه "يونج" لم يكن سوى كتابة (تدويناً) من الروح فى النفس. فى هذا الموضوع يتحدث أفلاطون عن المُثل، وأفلوطين عن العقول كصور أولية صدرت عن الواحد المتعالى الذى هو عقل أو روح. إن النماذج (الصور) الأولية للنفس، والتى يمكن فهمها من خلال مثل هذه النظرية على أنها مضمون نفس العالم (النفس الكلية) تدل على ذوات روحانية مختلفة الدرجات موجودة خارج النفس.

لقد وصل ك. ج. يونج أثناء مسيرة بحثه وفيما يتعلق بخبراته الغامضة (الغيبية) شيئاً فشيئاً إلى أقصى حدود تصوراته. وهذه هى درجة (أفضلية) لا يمكن تتبعها ووصفها تفصيلاً هنا. ولأنه عايش تجربة الاقتراب من الموت (الاحتضار) استطاع على أقل تقدير أن يصل إلى رأى مفاده أن ظواهر ميتافيزيقية كثيرة يمكن فهمها (تفسيرها) عن طريق افتراض وجود عالم للأرواح (روحانى) أفضل بكثير من أن تفسر عن طريق الصفات الأخرى للاوعى. لقد وصل إذن من خلال خبراته الذاتية (تجاربه الذاتية) إلى التفرقة الواضحة بين عالم الأرواح وما به من كائنات روحانية من جانب، وعالم الصور الأولية النفسية من جانب آخر. إلا أن ك. ج. يونج لم يجرؤ، بسبب كونه أسيراً للفلسفة الغربية، على التعبير عن هذه الآراء فى أبحاثه العلمية.

ويمثل هذا التفسير أهمية قصوى بالنسبة للتجربة القرآنية (بمعنى أننا يمكننا القول): بأن مصدر الوحى القرآنى الذى تلقاه النبى محمد لم يكن نفسه (باطنه) ولم يكن اللاوعى الجمعى (Das Kollektive Unbewusste) التى يشترك فيها (النبى) مع كل البشر، بل هو الملك والروح الذى جاء من العالم الروحانى عالم الوحى، حيث يكون الله هو المصدر الأول للوحى.

وحتى نوضح ذلك بمثال: فإننا نجد فى سورة ٧ (الأعراف) الآية ١٧٢﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾. لابد أن يكون هذا الميثاق الأول

(شهادتهم على أنفسهم) قد حدث فى العالم الروحانى فى الجنة أى فى أثناء الوجود القبلى (Praexistenaz) للإنسان. قد فهم ذلك فى ذات الوقت على أنه حدث أولى (نموذج- مثالى) فى اللاوعى الإنسانى مساويا لكونه كناية من الروح فى النفس، وإلا فكيف يُسأل (الإنسان) عن ذلك بعد البعث (يوم القيامة)؟.

إن قراءة القرآن تبعث الروح فى الصورة الأولى الموجودة فى النفس وتصححها. يوجد لهذا الموضع (للآية) الموجودة فى القرآن ما يوازنه فى الديانات الأخرى وبصفة خاصة فى الدين اليهودى. ويستطيع الإنسان ملاحظة أن النبى يفترض وجود علم مسبق عند مستمعيه أثناء تلاوته لبعض قصص القرآن. وهذا يؤيد افتراض وجود علاقة قوية بين ما كان معروفاً آنذاك من عقائد من جهة وما استجد من الوحى القرآنى من جهة أخرى. كانت هناك عقائد يهودية ويهودية مسيحية، وقد أشار القرآن إليها (ذكرها) من أجل أن يصححها عن طريق الحدَث المبدع وهو الوحى الجديد (القرآن). وهذا يعنى أن القرآن يُكمل ويُثْبت ويصحّح ما كان موجوداً من قبل.

هذا العلم المسبق الذى استمد من تلك الثقافات المذكورة يدخل فى مجال "أسباب النزول". لقد كان النبى يحمل هذا التراث (الثقافى) وينتظر الوحى القرآنى الذى جاء ليصحح هذا التراث.

ويمكن الحديث بشكل أدق عن هذا الوحى الجديد بالقول إنه لتصور خاطئ بالتأكيد أن يعتقد الإنسان أن محمداً لم يفعل سوى أن صاغ هذه الموروثات فى شكل وحى متبعاً فى ذلك أسلوب الشعراء. ولا يمكن أيضاً للإنسان افتراض (اعتقاد) أن هذا (الوحى) مجرد رُؤى (خيال) أو أصوات تسمع وتحمل صفة الذاتية.

إن الوحى الذى تلقاه النبى محمد كانت له صفة متعالية، تتعالى بكثير عن الوحى العادى، إلا أنها ولذلك السبب فهى فى ذات الوقت لها صفة موضوعية. إن الله قد اتصل بالنبى بواسطة الوحى وفى خلال تجربة الوحى هذه صهرت العقائد السابقة ووضعت فى شكلها الصحيح.

إن الأمور المتفقة فى الديانات الأخرى لم تأتِ فقط عن طريق الاحتكاك

بينها (بين الديانات) أو عن طريق تنقل رواياتها بين البلدان والثقافات. إننا نجد إلهامات متوازية (متوافقة) تصدر عن اللاوعى لأسباب تعلق بالصور الأولية.

إن ما يظهر فى عالم الروحانيات يسجل فى لاوعى الإنسان بصفته نموذجاً أولياً للحدث. ثم يستقر فى أعماق النفس ثم ينشط إذا توافرت شروط معينة.

وتبعاً لذلك ولكى نعود إلى الحديث عن الميثاق الأول، فقد تصور بعض الأحبار (اليهود) أن أرواح البشر العاديين أو كل ما جاء بعدهم كانت موجودة فى الإنسان الأول، أى آدم. ويوجد أيضا قول مأثور عند اليهود جاء فيه أن الله سأل اليهود فإن الطبقية الاجتماعية مستمدة من جسد "يوروشا" (الرجل) يدل هذا الاسم على أن الله قد حقق ذاته فيه (فى يوروشا).

نحن لا نريد الإكثار من الأمثلة، إن القول بأن كل الديانات ترجع إلى نموذج أوّلى واحد قد صححه الوحى القرآنى فى مرحلة إلهية جديدة (الوحى الجديد= القرآن) لقد تحقق ذلك، حسبما ورد فى ديانات أخرى، بالنسبة لأتباع ديانة معينة فقط، أما فى القرآن فقد انسحب ذلك على كل البشر.

ومن شأن ذلك أن يوضح مَيْزةً أخرى. إن الوحى لا يهدم طبيعة النفس، بل يضعها فى مكانها الصحيح الذى خلقت من أجله. ويقول النبى محمد فى حديث (شريف) "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه" (ترجم المؤلف هذه الكلمة "ماجوس" خطأ واعتبرها مقابلة لكلمة سحرْ وهى بالألمانية Magier). والحيوان يولد أيضاً سليماً كاملاً فهل رأيتم فيهم حيوانا مشوهاً؟. وهذا يعنى بالتأكيد أن وحى الميثاق الأول بين الله والبشر، كل البشر، يدعوهم (كل البشر) إلى العودة إلى الله عن طريق الهداية. ففيها، وليس فى غيرها، تبلغ الطبيعة الإنسانية كمالها. إن النماذج الأولية الجمعى جزء من الطبيعة الإنسانية، فى سورة رقم ٢ (البقرة) الآيات من ٣٠- ٣٣ جاء قوله تعالى مخاطباً الملائكة: ﴿.... قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

إن تعليم (الله) لآدم حديث فى مرحلة ما قبل الوجود (الوجود الأول أو القبلى)، أى فى عالم الأرواح، فى الجنة، وعلى العكس من الملائكة يعلّم (الله) آدم، علما بذوات الأشياء (الأسماء)، هكذا يستطيع الإنسان أن يحس ببواطن الأشياء مما يمهد له معرفتها. ويحتفظ الإنسان بمدخل لهذا العلم أيضاً على الأرض (فى الحياة الدنيا)، وهو يحمله فى باطنه، فى "لاوعيه الجمعى". لقد وضعه الله فيه .

هذا ما يثبته الوحى القرآنى الذى تلقاه النبى محمد. الملَك والروح يحمل هذا العلم بين الحين والحين. حينذاك يرجع الروح أيضاً إلى النموذج الأولى للاوعى، أى إلى أسباب النزول. فى أثناء عملية الوحى الحقيقية أى نزوله، تقوم الروح بإعادة تشكيل (صياغة) ما هو موجود بالفعل فى (باطن) الإنسان وتخلق فى تكل الأثناء فقط الصور الأولية الصحيحة التى تتطابق فى ذات الوقت مع الطبيعة الحقيقية للإنسان.

يتبقى لى هنا ذكر ملحوظة تتضمن أن ذات الطريق تنطبق على ما يتعلق بالعلاقات الاجتماعية التى يعيد الوحى القرآنى صياغتها من جديد. وهنا أيضاً ينبغى ملاحظة العلاقة بين سبب النزول، والإيضاح الذى ينزل به الوحى، إن الحلول الفاصلة أيضاً هنا تأتى بها كلمة الله.

لقد كان شيئاً مهما بالنسبة أن أضع هذه الإيضاحات فى المقدمة (مقدمة الترجمة). فعندما كنت أكتب "دروس قرآنية للمسيحيين" غمرنى الانبهار باكتشاف صحة القرآن عن طريق (نظرية) النموذج الأول. أما لو ظهر الانطباع بأن ما ذكرته يدل على أن تلك النماذج الأولية (Archetypen) الموجودة فى ذات النبى هى مصدر الوحى، فإن هذا الفهم (الانطباع) خطأ. أكيد لذلك أرجو أن تصحح (وتفهم) مثل هذه المواضع التى قد تثير هذا الانطباع، فى ضوء ما ذكرته الآن.

وأختتم (هذا المقدمة) بأمنية تتمثل فى أن نتبادل نحن الأخوة فى الإيمان وأتباع الديانات الإبراهيمية الثلاثة باسم "الواحد" (الله) الاعتراف والتحية بصفتنا مذاهب تنتمى إلى دين الله الواحد.

تاريخ ....

باول شيفارنزيناو

مقدمة الطبعة الثانية (التى اعتمدت للترجمة)

فى البداية أود أن أعرض وجهتى نظرا متعارضتين حول الطبعة الأولى من كتابى "دروس قرآنية للمسيحيين" إحداهما من وجهة النظر المسيحية والأخرى من وجهة النظر الإسلامية. من الجانب المسيحى وصف م. ميلدنيبرجر (CIBE Do- kumentation, 17. De 2. 1982) هذا الكتاب بأنه هام ومتعارض فى الوقت نفسه، ويقول "يمر المؤلف (شفارتزيناو) مر الكرام على كل شيء "المداخل التقليدية لكتاب الإسلام المقدس". ولا يستخدم المدخل الذى يستخدمه المؤمنون المسلمون، الذين يشكل القرآن بالنسبة لهم كلمة الله الأصيلة، وكذلك لا يستخدم المدخل العلمى المستخدم فى الغرب. وبدلاً من ذلك يرى (المؤلف) فى النصوص القرآنية انعكاسا لتجارب دينية أساسية. والتى تعكس بداية التجارب التى عاشها محمد (ﷺ) وعاشتها بيئته المحيطة والتى تنفتح على تصورات نفسية عميقة كتجارب متأصلة تتمتع بصلاحية عامة". كان يمكن لكاتب التعقيب أن يستمر فى هذا الاتجاه إلا أنه يصل إلى القول بوضوح: "قبل كل شيء يسبب هذا الكتاب شعوراً بعدم الارتياح لدى المسلمين أنفسهم فيما يخص فهمهم للقرآن. فمن منطلق فهمهم الدينى للوحى سوف يرفضون بقوة التفسير النفسى (للوحى) الذى يعرضه هذا الكتاب عليهم، ويرون فى ذلك خيانة (إنكاراً) لألوهية النص (القرآنى). فماذا يفيدنا نحن المسيحيين أن نتعرف على مدخل للقرآن يتعارض مع فهم المسلمين فى هذا الصدد؟".

على الجانب الآخر يكتب المسلم الألمانى مراد هوفمان فى (مجلة الإسلام الصادرة فى ١٩٨٣/١٢/١): "يعد هذا المدخل للقرآن وللإسلام أيضاً ببساطة أفضل ما يمكن أن يحدث لنصرة (دين) الله فى المانيا خلال الفترة الحالية". ويقترح (هوفمان) على كل مسلم المانى شراء عدة نسخ من هذا الكتاب لإرسالها إلى كل من المتعاطفين مع الإسلام ونقادة أيضا. وهذا ما حدث بالفعل، حسب ما علمت بنفسى، على نطاق واسع. يصل هوفمان مباشرة إلى صلب الموضوع بقوله المؤلف (شفارتزيناو) وجد المدخل إلى حقائق القرآن عن طريق التحليل النفسى (اللاوعى) فى نظرية كارل جوستاف يونج (١٩٦١م) فهو يرى الاتفاق التام بين

ما جاء فى القرآن وبين محتوى اللاوعى الكلى، ويرى أن تعاليم القرآن مطابقة للصورة الأزلية الأولى، ويؤدى به هذا الفهم إلى القول بأن القرآن فى حقيقته غير مخلوق فى الزمان، وهو زمانى وفوق الزمان فى الوقت نفسه، حقيقة سرمدية جامعة. وأخيراً وصل المؤلف إلى قناعة تجعله عند المسلمين مسلماً، على سبيل المثال (قوله) بأن الإسلام هو أول الديانات العالمية (دين التوحيد الأول) وأحدثها فى ذات الوقت، وفى تحفظه على حقيقة التثليث، وقوله إن القرآن هو الصورة الأصلية الأولى لتعاليم الكتاب المقدس، أى هو النص السابق لها. وفى كتابه (كتاب هوفمان) نشرته مذكرات مسلم ألمانى " المكتبة الإسلامية بمدينة كولن ١٩٨٥م" يصف كتاب "دروس قرآنية للمسيحيين" بأن إعلان عن انتصار الإسلام.

وأضيف إلى ذلك صوت إسلامى آخر. أيضا فى مجلة "الإسلام" كتبت فاطمة كولنج عن كتابى "دروس قرآنية". إنه لمن الممكن أن يكون هذا الكتاب قد كتب للمسيحيين (فقط) إلا أنه يبدو لى فى مواضع كثيرة وكأنه تمرين على القراءة الصحيحة للقرآن بالنسبة لنا نحن المسلمين المتحدثين باللغة الألمانية والذين هم فى معظمهم من محيط فكرى مسيحى غربى: إن القرآن لا يسهل قرأته بالنسبة للجدد وغير المتمرسين على قراءته. ونقرأ هناك أخيراً أنه من الضرورى للحوار بقاء بعض الاختلافات وحدود للأمور المشتركة. وهذا الأمر قد عُرض أيضا بغير مداراه أو جرح لشعور أحد. ولا يمكن للمرء أن يقرأ هذا الكتاب دون أن يكون ومعه المصحف (القرآن). وسوف يتبين المرء أنه لا يصل إلى النهاية لأنه يجد دائماً تفسيرات وآفاق جديد .... وهو بصفة عامة كتاب يشعر المرء بالحرية، وهو لا يهدم الأحكام المسبقة فقط بل يخلق وضوحاً للرؤية".

وجدير بالملاحظة أنه قد جاء رد فعل على الكتاب من جانب الماسونيين. من هذا الجانب كتب م. كيسلر فى (مجلة اليوزيس Eleusis (١٩٨٢/٦): "لقد استخدم شفازتزيناو نظرية "الصورة الأولى" كارل جوستاف يونج فى تفسير النصوص الدينية مما يسَّر فهمها. ولأننا جميعاً لا نعرف عن القرآن والإسلام إلا القليل، فإن كتاب شفازتزيناو "دروس قرآنية" لا يعد مفيداً فقط للمسيحيين بل أيضاً لغير المسيحيين. هذا ولم تمر مجلة "العلاج العامة"(هوميوباتيشة تسايتونج– ٤/

١٩٨٥) على كتاب "دروس قرآنية للمسيحيين" مر الكلام. فهى ترى أن هذا الكتاب يحتوى على مساعدة قيمة للطبيب الألمانى تعينه على فهم طبيعة مرضاه من المسلمين بدرجة أفضل، وهذا ما دعى الأطباء إلى أن يتمنوا لهذا الكتاب الانتشار بشكل واسع (كولر).

لقد ظهر بشكل عام من خلال التعقيبات الكثيرة التى وصلتنى التأكيد على أن هذا الكتاب، ومن خلال نظرية النموذج الأول (الأرشيتيب)، يخدم مد الجسور بين الديانتين العالميتين وتعميق فهم القرآن.

إن النموذج الأول، أو الصورة الأزلية تصدر عن الله ذاته، فى كلمته الأزلية أى القرآن الأول الذى هو قديم قدم الله. إن مما يساعد على فهم أعمق للحوار أن نبدأ فى تدبر هذا القرآن الأول الذى أشير إليه حرفياً فى سورة الزخرف آيه ٤ بأنه "أم الكتاب". وهناك إشارة أخرى إليه "بالكلمة الأولى" فى سورة البروج الآيات ٢١- ٢٢ نصها "بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ". هذا القرآن الأول وجودة أزلى أى أنه غير مخلوق. وعلى العكس من ذلك فإن صورته المكتوبة أو المقروءة مرتبطة بالزمان (مخلوقة فى الزمان) ومتعلقة بالحياة الدنيوية (الأرض) (انظر رّودى باريت: القرآن، طرق البحث - دارمشتات ١٩٧٥).

من ذلك يتضح التفرقة بين القرآن وكلمة الله (كلام الله). ويكون القرآن حسب هذه النظرة النسخة العربية للقرآن الأصلى الذى هو كلمة الله أو القرآن الأول.

حول كلمة الله أو القرآن الأول يقول عالم الكلام المسلم الباقلانى: لا نعرض على كلمة الله الأزلية الحروف والحركات ولا أى شىء مخلوق. ليس لله حاجة فى كلامه إلى الحواس أو الآلات.. تعالى الله عن كل ذلك وكلمته الأزلية ليس لا مكان مخلوق" (المرجع السابق). والوسيط بين الأزلى والزمانى كان جبريل. وتستلزم الوساطة أيضا اللغة العربية لأن الله لا يتكلم لا العربية ولا أية لغة بشرية. أما كلام الله الحقيقى فهو، كما يقول الباقلانى هو المضمون.... الذى يوجد أصلاً فى ذات الله (المرجع السابق). والكلام القديم (الأزلى) أو المضمون الذى يوجد فى ذات الله يسمى فى الروايات المسيحية "الكلمة" (لوجوس) (انجيل يوحنا ١/١). وبذلك يتطابق القرآن الأول مع الكلمة الأزلية، كلام الله غير المخلوق، الذى تمثل،

حسب العقيدة المسيحية، فى شخص عيسى المسيح فكأنه الوعاء الأرضى الذى تجلت فيه الكلمة الأزلية.

ويتطابق القرآن الأول (القديم) مع كلمة الله الأزلية ميتافيزيقيا، فى مقابل تطابق القرآن العربى مع الشخصية التاريخية لعيسى (عليه السلام) دنيويا. إن تجسد الكلمة الأزلية فى المسيح يتكامل مع تمثل القرآن العربى فى كتاب مقروء ومؤثر إلى حد بعيد.

إن من الراجح وجود تكامل بين وحى المسيح ووحى القرآن، تماماً كما يفسر القول فى علم الفيزياء عن طريق مفهومين متكاملين: جزئ وموجة. ومن أجل هذا التكامل كتبت كتاب "دروس قرآنية" بالدرجة الأولى.

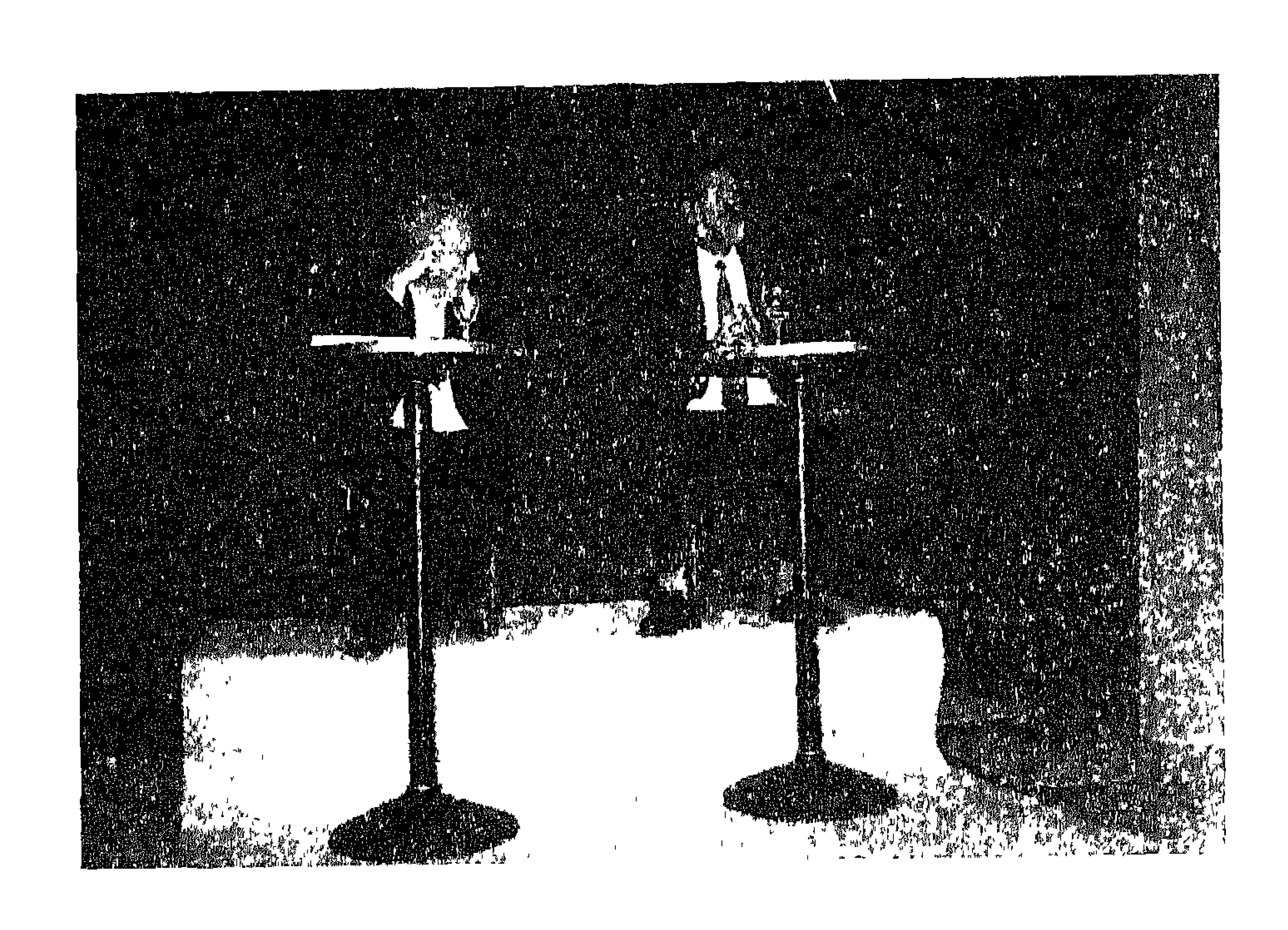
بهذه الصورة يكتمل التصور العقدى الخاص. ويتمثل ذلك فى أجلى صورة عندما يوضع التصور المسيحى المتضمن فى العهد الجديد لابن الإله، فى مقابل العبودية لله المتضمن فى القرآن. ومع أن هذين المفهومين مختلفان من الناحية المنطقية مثل اختلاف الجزئ عن الموجه (فى الضوء) إلا أنهما رغم ذلك يتكاملان ويمثلان كل عناصر الإيمان. إنه كلما وجدنا فى القرآن اتجاهات (تيارات) أصلية لليهودية. المسيحية (المسيحية الأول) أو لليهودية المسيحية المشتركة مع الغنوصية علينا أن نعبر عن امتناننا لذلك. ذهبت بعض الآراء هنا وهناك إلى القول بأن المؤلف (شفارتزيناو) يضع هذا الاتجاه (المذهب ويقصد هنا الإسلام) فى مرتبة أعلى من المرتبة الأساسية للعهد الجديد إلا أن التكامل لا يعنى المفاضلة بل يعنى أن أحدهما يكمل الآخر.

تتضمن الطبعة الجديدة (هذه الطبعة) فهارس للآيات القرآنية والمفاهيم والأعلام إلى جانب فهرس مقارن للآيات القرآنية مرتب حسب الحروف الهجائية.

أود هنا أن أعبر عن شكرى القلبى لكل من السيد/ بيتر بوش والسيد/ هانس يوررجين برانت لما أسهما به من أجل إخراج هذا الكتاب.

دورتموند فى يوليو ١٩٨٩

باول شفارتزيناو



المؤلف يشرح ما يمكن أن يُستثمر في ندوات الحوار الديني والحضارى من مواقف مشتركة بين ديانات التوحيد (اليهودية والمسيحية والإسلام)، على أساس ما دار في الكتب المقدسة الثلاثة

الفصل الأول

أمام القرآن

ليس الطريق إلى فهم أو الاقتراب من مضمون القرآن بالأمر اليسير أمام كل من يريد ذلك. فقد يبدو للمرء فى الوهلة الأولى أنه يقف أمام كم هائل غير متناسق من العبارات والصور والقصص هو أقرب إلى الخليط العشوائى منه إلى الكتاب بالمعنى الصحيح.

(نجد) عروضاً شعرية على أعلى درجات الجمال يتبعها مباشرة عرض لأحكام شرعية. كل هذا يثير فى الإنسان إحساساً بالتيه. يضاف إلى ذلك تكرار يتخلل الكتاب كله، وقصص غير كاملة ولا يجدها القارئ مكتملة فى أى موضع آخر (من الكتاب) فتبدو وكأنها اقتباسات يفترض معرفة القارئ بها مسبقاً.

إنه لمن المستحيل بالنسبة للقارئ المبتدئ أن يتمكن من أن يكون لنفسه فهماً متكاملاً، بل غاية ما يمكن أن يصل إليه القارئ هو ترتيب شكلى لهذه القصص والسور. حتى أن محاولة عمل ترتيب داخلى لسورة واحدة من كبار السور على أساس نظام محدد لا تنجح إلا بصعوبة بالغة. أما بالنسبة لمن اعتادوا قراءة الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل) فسوف يجدون إضافة إلى ما سبق اختلافات شديدة بين ما يجدونه فى القرآن من جانب وبين ما يقرءونه فى كتابهم المقدس حول ذات القصص من جانب آخر.

كما أن الأسلوب الخطابى المتضمن فى كلمات الله غير المحددة فى القرآن تأخذ عند القارئ أحيانا صفة نهر من الحديث يتدفق بلا نهاية فيغمره الحنين إلى العودة إلى الأسلوب القصصى (الروائى) الذى اعتاده فى الكتاب المقدس[1]. قد يؤدى هذا الإحساس الغريب بالبعض إلى أن يتوقف عن قراءة القرآن وأن يتركه جانباً. أما من يصمد (يستمر فى قراءة القرآن رغم ذلك) مع النظر إليه نظرة كلية شاملة ويترك نفسه تتعرض لمؤثراته بشكل دائم سوف يغمره تغير داخلى هائل يعم على نظرته إلى الكتاب كما يعم كل من يقرأه أو يسمعه أو بمعنى أدق يسمعه أو يراه. سوف يمس الإنسان عندها كما لو أن كل المقاطع (الأقوال) الصغيرة

والكبيرة وكذلك القصص والصور التى يتكون منها القرآن اجتمعت فى جوهرة عظيمة صنعت بمنتهى الدقة تضئ من داخلها، وترسل أشعتها فى كل اتجاه وتدور فى كل إتجاه وتدور حول نفسها إلى مالا نهاية. فى كل مسطح صغير من هذه الجوهرة تضيء صورة، صورة أصلية متفردة فى نوعها يتجدد ظهورها مع كل حركة دوران فى ثوب جديد خلال كل مسطح صغير لهذه الجوهرة.

سوف نوضح ذلك من خلال هذا مثال: يأتى الحديث عن نوح (عليه السلام) فى ٢٨ سورة (من سور القرآن الكريم). قد يرى البعض فى ذلك مجرد تكرار ممل. إلا أن الحقيقة ليست كذلك، بل على العكس. إن الحديث عن نوح (عليه السلام) وقومه يأتى دائماً تحت. أضواء وتحديدات وسياقات متجددة دائماً. موضوع واحد يعرض فى مناسبات وصور متجددة إلى مالا نهاية.

أحياناً يأتى الحديث عنه باختصار شديد، وأحياناً أخرى فى صورة مأساوية، وأحياناً أخرى ترد مجرد إشارات قصيرة داخل موضوع آخر. فيأتى ذكر نوح "(عليه السلام) فى سورة القمر حيث يتهمه قومه بالجنون(٢)، فيتجه إلى الله ويشكو له هوانه على قومه "قال تعالى" ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾(٣). ويعنى ذلك تقريباً أنه، أى .. نوح (عليه السلام) قد دعا الله أن ينتقم لنفسه وله من قومه. فيأتى الله بالطوفان ويحمل نوحا على الفلك التى هى ألواح ومسامير كل ذلك بأمر الله، وأخيراً يترك الله السفينة لتكون آية لمن يعتبر بقوله تعالى:﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾(٤). تعرض السفينة، أى الفلك بالتعبير القرآنى، فى النهاية فى صورة فنية تعبيرية من الحجم الكبير أمام أعين الإنسانية لتكون آية وتحذيراً.

فى سورة رقم ٧١ "نوح" توجد صورة فنية تعبيرية أيضاً تعرض القوم (قوم نوح) وهم يضعون أصابعهم فى آذانهم ويغطون رؤوسهم بثيابهم حتى لا يسمعون قول رسول الله(٥). ثم تذكر أصنام العرب القديمة: ود، وسواع، يغوث، يعوق، نسر(٦). كل ذلك ضمن دعاء نوح لربه ألا يذر من الكافرين على الأرض دياراً(٧). لأنهم يقتلون عباد الله ولا ينجبون سوى خطائين وكفاراً(٨).

وفى السورة رقم ٥٠ (سورة ق) يرد ذكر قوم نوح مع أقوام أخرى معظمها

لم يذكر فى الكتاب المقدس، فيذكر أصحاب البئر[٩] (الرس) وثمود، وأصحاب الأيكة وقوم تُبَّع الذين كذبوا رسل الله[١٠].

فى سورة رقم ٦ (الشعراء) يأخذ لوناً جديداً من المأساوية حيث يُتهم نوح بأن اتباعه كلهم من الأرذلين[١١] ويهدده قومه بأنهم سوف يرجمونه[١٢]. وأخيراً ينقذ الله قوم نوح بحملهم على الفلك[١٣] ويغرق الآخرين. (فى قوله تعالى) :﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾[١٤].

فى سورة رقم ٣٧ (الصافات) يبدو وكأن ذلك (إغراق قوم نوح) لم يتطلب من الله سوى إشارة بسيطة بيده[١٥]. وفى سورة (المؤمنون) يأتى وجهاء قومه ويقولون له إنه مجرد إنسان مثلهم، إلا أن نوحاً يتلقى الأمر الإلهى بأن يصنع الفلك على عينه وتنفيذاً لأمره (تعالى) ثم يفور التنور[١٦].

وفـــى السورة رقم ١١ (سورة هود) يسخر منه قومه أثناء قيامه ببناء السفينة[١٧]. ولما جاء الطوفان ركب نوح الموج الذى كان يبلغ ارتفاعه مثل الجبال[١٨]. أما ابن نوح الذى أراد أن ينقذ نفسه بنفسه بأن يأوى إلى الجبال فقد بلغه الموج وأغرقه[١٩]. إلا أن الله قد وعد بنجاة أهل نوح، فيعرف نوح أن (الابن) العاصى ليس من أهله[٢٠]. ثم استقرت السفينة على الجودى (جبل يحمل هذا الاسم)[٢١].

وكل ما ينطبق على نوح ينطبق على إبراهيم ولوط وموسى وهود وصالح وشعيب والرسل التى لم تذكر فى القرآن الكريم (عليهم السلام). من سورة إلى أخرى نجد سلسلة من الأنبياء، كل واحد منهم كان يحمل رسالة ليبلغها إلى قومه، كما لو كان ذلك هو جوهر التطور الإنسانى، الذى يمثله ظهور الرسل فى كل أمة تصبح فى مرحلة تاريخية حرجة تتطلب ظهور الرسول فيها. هنا أيضاً نجد المبدأ التعبيرى الذى يستخدم الرمز لإظهار المضمون الجوهرى (للرسالة) ويضفى عليها بذلك صفة أصلية مميزة يتحد فيها المحدود مع اللا محدود بلا انفصام، كما لو أن المقصود بذلك هو التقاء الصور الأولى (المبدئية) للتاريخ والتى تظهر فى صيغة جديدة مع كل رسول.

لقد حاول هاينريش شباير فى كتابه "قصص الكتاب المقدس فى القرآن" أن يعرض نسقاً مترابطاً لما ورد متفرقاً فى ثنايا القرآن. إن عملاً كهذا له قيمته ويمكن الإسهام فى إظهار العلاقات (بين المعلومات المفترقة)، إلا أن الإنسان يعتريه الإحساس بأن الحيوية المميزة (الموجودة فى القرآن الكريم) قد تحطمت (بسبب هذا العمل). والتى تستمد وجودها فى كل عنصر (آية) من خلال وجودها فى مكانها الأصلى، وكذلك يختفى الأثر البراق الذى يصدر عن القرآن (الكريم).

حقّاً، فكأن النور الأصيل (الأول) الذى تتضمنه صور العالم والتاريخ (فى القرآن الكريم) ينكسر.

والشىء الذى يبدو للعقل المرتب وكأنه عشوائى، يصبح نظاماً خفياً مضيئاً للحقيقة.

هنا تأتى سورة الفاتحة التى تعلو بنا بآياتها السبع مباشرة إلى إله كل البشر فى هذا العالم الإله الرحمن الرحيم مالك يوم الدين الذى يهدينا إلى الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم وليس المغضوب عليهم ولا الضالين.

ويُختم القرآن بدعاء من الأعماق بالحماية من كل شىء يأتى فى الظلام أو من الأشرار من الإنس أو الجن فى هذا العالم أى من شر ما خلق(سورة الفلق ١١٣) ثم (دعاء) بالحماية من شر الوسواس الخناس من الجِنّة والناس(سورة الناس ١١٤).

قد يخبر من الناحية الشكلية أن معظم السور مرتبة على حسب طولها. فيبدأ القرآن بعد سورة الفاتحة بأطول سورة على الإطلاق (سورة البقرة) التى تتضمن ٢٨٦ آية بعضها طويل جداً، ويختتم القرآن بالسورة القصيرة رقم ١١٤ والتى تتكون فقط من ست آيات قصيرة جداً. لم ترتب السور حسب زمن نزولها إلا أننا يمكننا القول بأن طوال السور قد أُنزلت فى مرحلة متأخرة من مراحل الوحى وأن قصار السور على العكس من ذلك تنتمى إلى مرحلة مبكرة من مراحل الوحى. بذلك ندخل فى طريقين متعاكسين فى ذات الوقت. فكلما تقدمنا فى قراءة القرآن إلى الأمام دخلنا فى فترة أعمق (أقدم) من فترات الوحى. بيد أن أول سورة تلقاها النبى (ﷺ)هى سورة العلق، وهى تقع فى نهاية القرآن تقريبا، وهى تتضمن الأمر بالتبليغ

(بداية النبوة) عندما نودى (أُمر) بــ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (آية رقم ٢٢).

أما فى البداية[٢٣] (بداية القرآن الكريم) أى فى سورة ٢ فنجد الإشارة القاطعة إلى الكتاب، القرآن، الذى يمثل مركز العقيدة الإسلامية (قوله تعالى):

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ(٢)الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(٣)والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ(٤) أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٥)﴾. (الآيات ٢-٥).

يشيع بين الناس القول بأن السورة المتأخرة أقل قوة فى التعبير. حيث تنساب اللغة فى توسع (فى عمومية) حتى تقترب من الأسلوب الخطابى (الوعظى). وعلى العكس من ذلك فإن السور المتقدمة (من حيث زمن النزول) تحمل تدفقات لوحى ملتهب ملىء بالصور البديعة من خلال عظمة لغوية.

ويلاحظ أيضاً أن الالتزام بالسجع يتضاءل مع التقدم فى القراءة، وتطول المسافة بين القافية والقافية التى تليها، وينتهى الوحى (الآية) فجأة.

إلا أننا إذا أخذنا القرآن ككل متكامل فسوف نجد أننا لا نرغب فى غياب أى صفة من الصفات التى ذكرت (وسوف نجد) أن الأسلوب الهادئ الذى تتميز به السور المتأخرة يفتح لنا آفاقاً جديدة، ففى وضوح تام نجد أمامنا عرضاً لما مر به الوحى من أحداث (تاريخ الرسالات السماوية). أو عرضاً لصور الخلق (الأول) أى كيف خلق الله الأشياء بشكل يتجدد فى كل صورة، وعرض لنار جهنم (فى المقابل) حدائق الجنة الظليلة. ويرفع الله الصراط ثم يستوى على العرش، ويرغم الشمس والقمر على أن يأتياه (بمعنى يدخلان فى طاعته). وتحت قبة السماء تقع الكعبة والحجر الأسود حيث يجتمع الناس (من كل مكان) وهو بيت العبادة لكل البشر والذى أقام قواعده كل من إبراهيم واسماعيل (عليهما السلام). وكلما تقدم الإنسان فى القراءة فى اتجاه بدايات الوحى القرآنى يتيقن الإنسان من أن النور الأول (الأزلى) الذى يظهر فى صور متقدمة أو فى مقاطع من الصور لا نهاية لها يتدفق عن مصدر فى غاية العظمة. وينجذب الإنسان داخل هذا التيار المتدفق. وكأننا أمام فيضان نار تخرج من قلب النبى (ﷺ). ومن قلب العالم ومن (مصدرها الأول) الله

(يقول تعالى) : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ(١٠)نَارٌ حَامِيَةٌ(١١)﴾ (سورة القارعة الآية ١٠-١١).

ثم يشعر الإنسان مرة أخرى وكأنه يهبط فى أعماق ليل عجيب. حيث تضىء النجوم وتهبط فتكون أجمل من ألف قمر، وتنزل الملائكة والروح فيها إلى أن يبدأ شروق الشمس بضوئها الأحمر (سورة القدر). ثم ينشرح صدرالإنسان ليتسع إلى ما هو يسير ما هو عسير (سورة الشرح)[٢٥].

(يقول تعالى) : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (سورة النور الآية ٣٥).

رغم كل ذلك فإنه من الصعب افتراض أن القرآن قد رُتب حسب نظام خارجى واحد. نجد فى بداية القرآن تقريباً فى أطول سورة وهى سورة البقرة وفى الآية رقم ٣٠ قول الله (عز وجل) أنه سوف يجعل له خليفة فى الأرض وهو الإنسان، فترد الملائكة متعجبين: "أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء" ثم يرد العليم الذى يعلم مالا تعلمه الملائكة بأن يعلم آدم من علمه ويعلمه الأسماء كلها (آية ٣١). ثم يأمر الملائكة بالسجود لآدم الذى يعرف أسماء كل شىء.

هنا يظهر قدْر الإنسان، حتى أن الملائكة تسجد له، لأن الإنسان قد تلقى العلم بحقيقة الوجود كما هو موجود، ولأنه سوف يكون بذلك مسئولا عما يفعل، وهو بذلك قد وضع تحت سلطة العقل العملى، ولأن الوجود الأول لكل البشر قد وُجد بالقوة والوجود القبلى (بالموجود الممكن، ممكن الوجود) فى آدم، فإن الإنسان إلى الاعتقاد بأن هذا العلم الأوَّلى هو من العلم الإلهى المخلوق فى أعماق النفس الإنسانية (٢٦). وهو الذى يمثل العلم الفطرى المشترك الموجود فى أعماق الإنسان (فى اللاوعى).

ويخبرنا القرآن بعد ذلك بأن إبليس قد امتنع عن السجود لآدم لأنه خلق من مادة أنبل من التى خلق منها الإنسان وهى النار بينما خلق الإنسان من طين (التراب).

منذ ذلك الحين وهناك عداء مستحكم بين الإنسان وإبليس. بمعنى أن الله قد أراد للإنسان أن يعيش فى صراع دائم (مع الشيطان).

أما ما ورد فى هذا الخصوص فى القصص المسيحى فيذهب إلى أن الشيطان رفض السجود للمسيح فى صورته القبْلية (فى أثناء وجوده بالقوة، قبل وجوده بالفعل فيما بعد) عندما قرر المسيح القبْلى أن يصبح بشرًا. وهنا نلاحظ أن المسيح كان يمثل الإنسان الذى كان يظهر فيه الإنسان فى أحلى صوره (فى صورته المجردة). بينما نجد أن الإنسان المقصود فى القرآن (فى هذا السياق) هو الإنسان على حقيقته بما فيه من جوانب سلبية هذا الإنسان هو خليفة الله فى الأرض، وهو الإنسان الذى يمكنه تحقيق ذاته. عندما يحاول تحقيق العلم الذى وضعه الله فى أعماقه وفى اقعه المعاش، والطريق إلى ذلك هو الاستسلام لهدى الله الرحمن العليم (خالق العلم).

ونجد أيضاً فى سورة البقرة (الآية ١٢٤ وما بعدها) قصة رفع إبراهيم وابنه إسماعيل القواعد من (الكعبة. وكذلك دعاءهما لله بأن يجعل منهم أمة مسلمة له وأن يبعث منهم رسولاً. يعتبر هذا إشارة إلى الدين الأول دين إبراهيم (عليه السلام) لكل البشر الذى جدده إبراهيم (عليه السلام) وسوف يجدده محمد (ﷺ) فيما بعد.

يُعتبر الإسلام، على وجه معين، أحدث ديانات التوحيد الكبرى وهو فى ذات الوقت أقدمها. يقول تعالى فى الآية ١٣٥:﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. وتعود التسمية الغامضة لإبراهيم (عليه السلام) بالحنيف إلى أنه توصل إلى معرفة الخالق الأزلى (الأول) من وراء كل قوى الطبيعة والأفلاك. ولذلك نسب إليه أنه أول من بلّغ الدين الأول (الأصيل).

فى سورة الأنعام (الآية ٧٤ وما بعدها) نجد كيف أن الله (تعالى) أثبت لإبراهيم (عليه السلام) أنه المالك والمهيمن على السماوات والأرض، فقد رأى ابراهيم نجماً يظهر ثم الشمس، وكان إبراهيم يعتقد فى كل مرة أن ما يراه هو الإله، إلا أنه كان دائماً يرى هذه الأشياء تأفل، بعدها توجه إبراهيم (عليه السلام) إلى خالق السموات والأرض.

ولا تخلو سورة ٢١ "الأنبياء" (آية ٥١ وما بعدها) من الأسلوب الساخر عندما يقدم إبراهيم على تحطيم آلهة أبيه آزر، ويترك كبيرهم ثم يقول لمن اتهموه بهذا الفعل بسخرية:"بل فعله كبيرهم هذا". فتبينوا للحظة أنهم هم الظالمون[٢١].

وينسب إلى إبراهيم كتاب أُوحى إليه وهو سفر "بيزيراه" أو سفر "الخلق"[٢٨]. ويذكر القرآن فى سورة الأعلى الآية ١٩ صحف إبراهيم" وفى سورة، البقرة مقام إبراهيم يتحدد اتجاه القبلة بمقام إبراهيم إلى جوار الكعبة مع التأكيد على أن لله المشرق والمغرب" (الآية ١٤٢). وتتجه أنظار المسلمين إلى الأعلى، إلى الله، وكذلك إلى مقام إبراهيم رمزاً لوحدة كل البشر المؤمنين بالدين الأول والذى يتجدد (الإسلام)، وبالتالى إلى كل مخلوقات الله التى تتمثل فيها عظمته. لأن الله محيط بكل شىء حسبما يرد مراراً وتكراراً فى القرآن الكريم وما يتفق معه الاتجاه الذى تضمنته الكلمة الصوفية الواردة فى الديوان الشرقى الغربى للشاعر جوته:

هكـــذا أخيـــراً مـــنك تيقـــنت   أنـــك فى كـــل شىء قد تجليت[٢٩]

هل يمكن أن تكون مجرد صدفة أن تقع سورة الكهف فى وسط القرآن تقريباً؟[٣٠] إنها تتضمن قصة أصحاب الكهف السبعة(؟) وقصة صاحب الجنتين مع صاحبه، وقصة موسى وفتاه وفقدانهما لحوتهما وما تبع ذلك من لقائهما بالعبد الصالح "الخضر" وأخيراً قصة ذى القرنين وهى تصوير رائع للإسكندر الأكبر. فى تناسق كامل لموضوعات مختلفة (متباينة) يشبه عمل اللاشعور فى ترتيب أحداث الأحلام تعرض هنا القصص واحدة بعد الأخرى حيث تظهر من خلال ذلك الصورة الأولية للتغير (التحول من مرحلة إلى أخرى فى تطور خلق الإنسان) حسب تفسير ك. ج. يونج[٣١] لهذه السورة(انظر الميلاد من جديد Uber die Wiedergeburt – المجلد الأساسى ٩/١ ص ١٤٩– ١٦١)، حيث تتعرف أعماق النفس الإنسانية على علمية تكونّ الشخصية المستقلة. وبطريقة فريدة يظهر فجأة.

رفض إبليس السجود لآدم.

يفسر ك. ج. يونج (كارل جوستاف يونج) الكهف بأنه المكان الذى يولد فيه الإنسان من جديد، هذا المكان الغامض الخالى الذى يحبس فيه الإنسان حتى يتخلق ويتجدد. يقول القرآن فى ذلك: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ (الآية ١٧). الوسط (الفجوة) هو المكان المركزى الذى يوجد فيه الجنين أو يحدث فيه الخلق (التكون).

أو هو المكان الذى نقدم فيه القرابين أو يحدث فيه التحول (انظر ص ١٤٩). هذه القصة تعنى مايلى: إذا حدث أن وُجد الإنسان فى هذا الكهف، بمعنى الكهف الذى يحمله كل إنسان فى داخله أو ذلك المكان المظلم الذى يقع وراء الوعى، فسوف يجد نفسه داخل عملية تحوُّل لاشعورى، وأثناء دخوله فى مرحلة اللاوعى يتسبب فى حدوث ربط بين مضمونى الوعى واللاوعى عنده. ويترتب على ذلك تغيرات ذات آثار بعيدة على شخصيته سلبية أو إيجابية، وكثيرا ما يفسر هذا التعبير بإطالة العمر الطبيعى أوأنها سعى إلى تحقيق الأبدية (ص ١٤٩ وما بعدها).

يشير ك. ج. يونج إلى أن قصة أهل الكهف (النائمون السبعة)[٣٢] فى القرآن الكريم تتضمن على ما يبدو مواعظ خُلقية غير مترابطة، إلا أن عدم الترابط هذا هو فى الظاهر فقط، أما الحقيقة فإن الرابط (بين تلك المواعظ الخلفية) هو المادة التى يحتاجها الأشخاص الذين لا يمكنهم أن يولدوا من جديد، بل عليهم فقط الاكتفاء بالالتزام بالسلوك الخلقى أى بطاعة التشريع، فكثيراً ما يكون الالتزام بالقانون بديلاً للتحول الروحى (ص ١٥٠ وما بعدها). وعلى أية حال فإن مثال صاحب الجنتين الذى كان معتقداً أن ملكه لن يبيد أبداً، على العكس مما كان يعتقده صاحبه الفقير، إلا أنه أصبح ليجد جنته خاوية على عروشها، يدل على أن الوجود الحقيقى (بمعنى الجنة الحقيقية) يتمثل فى شىء أفضل (أى ليس ما نراه نحن كذلك).

وتعتبر القصة التالية امتداداً وتوضيحاً لقصة أصحاب الكهف ومشكلة الميلاد من جديد (ص ١٥٢). أراد موسى وفتاه أن يبلغا مجمع البحرين، حسب ماروى عن يوشع بن نون (كلمة "نون" تعنى السمكة الحوت). (وفى هذا المثال أو القصة) يمثل موسى، حسب ما ذهب إليه ك. ج. يونج، الإنسان الذى يبحث عن الكمال (أو الحقيقة) (quest) بمعنى البحث عن الإنسان الأفضل أو الأكمل وهو "الذات" الذى يتحد فيه الوعى مع اللاوعى (فى الإنسان). الحوت هو الرمز الذى يرمز إلى الذات المستقرة فى الأعماق (عمل النفس الإنسانية). والتى أزيحت إلى الظل واللاوعي.

ويحمل الحوت فتى موسى، بمعنى ظل موسى، وينساه عند الصخرة وكان الراحة، ويتخذ الحوت سبيله فى البحر سربا، البحر يرمز إلى اللاوعى (اللاشعور)

غير المستقر (المستريح). وعندما يعود موسى ويوشع إلى الصخرة يجدا عندها العبد الصالح (الخضر) الذى يرمز أيضا إلى "الذات". وعلى كل حال، هكذا يقول ك. ج. يونج، يتعرف فيه موسى على وعى أعلى يتوقع أن يتعلم منه والآن تحدث الأمور التى لا يفهمها (موسى) والتى تمثل كيفية إحساس وعى الآنا بقدر الذات القوى. فلا يمثل الخضر الحكمة الأعلى فقط بل أيضا التصرف المناسب الذى يقع خارج دائرة العقل الإنسانى (أى لا يمكنه فهمه)، (ص ١٥٥). يعبر القرآن عن ذلك عن طريق خرق الخضر للسفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار فى البلد التى أبا أهلها أن يضيفوهما. أما الأحداث غير السليمة (فى ظاهرها) التى انتقدها موسى فتفسيرها أن السفينة لا ينبغى أن يأخذها الملك الظالم ولا يسمح للغلام أن يرهق أبويه الصالحين طغياناً وكفرا، وأن الجدار ينبغى أن يظل قائماً لأن تحته كنز ليتيمين[٣٣].

وأخيراً تأتى قصة ذى القرنين الذى وصف فى بعض الأخبار بأنه صديق للخضر بلغ هذا الرجل (ذو القرنين) نهاية الأرض وقطع المسافة ما بين مغرب الشمس ومطلعها أى أنه سار فى طريق تجدد الشمس ما بين الموت والظلام إلى الظهور من جديد (ص ١٥٨ وما بعدها). وأخيراً يبنى فى مكان وسط بين السدين (جبلين) ردما (سدّاً) بين يأجوج ومأجوج المفسدين فى الأرض. (ويرمز ذلك) إلى أن الذاتية تريد الحفاظ على نفسها تجاه ما ينتج عن تصادمها مع القوى النفسية الكلية.

وفيما يخص الصورة الأصلية لما ورد فى القرآن عن عيسى (عليه السلام) أريد أن أقتصر على قرينتين (موضعين). فى سورة مريم التى تحمل اسم "مريم".

يرد ميلاد عيسى(عليه السلام) فى أسلوب يذكرنا بميلاد "بوذا" و "محمد"

(ﷺ) حسبما تقول (الباحثة) إلزا صوفيا فون كمبهوفر (Elsa Sophia von Phoneveuer) فى كتابها "القصص الإسلامى عن المسيح (Islamische Christuslegenden) يتضمن التصور الأولى مايلى: أن الميلاد قد حدث فى الصحراء. السيدة التى حملت فى الطفل المقدس ذهبت إلى الصحراء، إلى البُعد (الابتعاد) اللانهائى، حتى تبتعد كل البعد عن الناس. صحراء قاحلة حولها فى كل اتجاه. إلا أنه بمجرد أن جاءها أول المخاض نمت نخلة عند قدميها، وبينما هى

تنظر حولها وتتألم بصوت خفيض ارتفعت هذه النخلة إلى علو عظيم وظللتها بظل أوراقها ثم انحنت إليها لتحميها. وعندما لامست أغصانها الأرض انفجرت عين من الماء فى ذلك الموضع فانتشر فيه رطوبة وهواء عليل. وهكذا فى حنو تام وبلا أية آلام وُلد الطفل المبارك. هذه هى القصة العظيمة لميلاد الخلاص كما نجدها أيضا بالنسبة لعيسى "فى القرآن الكريم" (ص ١٥).

المثال الآخر الذى أريد ذكره هو تصوير القرآن للعشاء المقدس (وهو كما يأتى فى قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء قَالَ اتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(١١٢) قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ(١١٣)قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(١١٤) قَالَ اللّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ(١١٥)﴾[٣٤] المائدة التى أنزلت لا تعنى فقط غذاءً روحياً بل أيضا غذاءً للجسد. مائدة (تنزل) من السماء فى يوم عيد واحتفال بالسلام على الأرض، مائدة معجزة حقيقية، عبرة للإنسان متكاملة تتناغم فيها السماء والأرض، (هدية) للإنسان الحسي والمعنوي وليس فقط الروحانى تكملة شاملة للعهد الجديد، تماما كما تظهر فى المسيحية فى صورة البحث عن وعاء المعجزات وحجر الحكماء. لقد انطلقنا من تشبيه (القرآن) بالجوهرة التى يظهر النور من خلال مصطلحاتها فى شكل صوُرٍ للعالم وللتاريخ. إن الله ذاته نور على نور وفى ذات الوقت يظهر دائماً من خلال عظمة اللغة (لغة القرآن)التى تعطى القرآن كله صفة كلام الله. حقا إن اللغة (لغة القرآن) كثيراً ما تكون مكثفة (غامضة) إلى درجة أننا لابد من الاستمرار فى القراءة والتركيز(التدبر) أثناء الاستماع لفترات طويلة حتى نتبين أننا أمام ظاهرة لغوية عظيمة. وكما تحدثنا عن نقاء الصور وبراعتها يمكننا أيضا هنا الحديث عن براعة (نقاء) اللغة التى تعطى الانطباع بإمكان وصف هذه اللغة بأنها بللورة لغوية تماما كما نقول بللورة نورانية.

ويعتبر القرآن بصفته التعبير اللغوى عن الله(ﷻ)هو المعجزة الحقيقية فى الدين الإسلامى[٣٥]. ويمكن هنا استعارة التعبير الذى ورد فى إنجيل يوحنا١/١)

وهو فى البدء (البداية) كانت عظمة اللغة. كل الثقافة الإسلامية تضىء من خلال القرآن وعظمته اللغوية.

لابد أن نكون على يقين بأن كل ما فى القرآن هو كلام الله. يقول الله للنبى ما يريد قوله ويخبره بما يقول الأعداء (الكفار)، يتكلم الله بصفته الله (بصيغة المتكلم) ومنه تأتى صيغ التسبيح والحمد، ويتكلم بضمير المتكلم (أنا) وضمير المخاطب (أنت) وضمير الغائب (هو) وضمير المتكلم الجمع (نحن)، والمخاطب الجمع (أنتم)، وضمير الغائب الجماد والغائب المؤنث (هى)، كل ذلك يتضمن كلام الله. الله فى كل مكان، محيط بكل شىء، الله كل شىء فى كل شىء، يتجلى الله بذاته فى الكلام، ويتكلم من خلال كل شىء فى لغة مُطلَقة.

ويذكرنا الحديث عن القوة العظمى لكلمات الله بصورة الجزئيات (مسطحات البللورة) كأن قدرة الله قد هبطت على كم من الصور فكسرتها (حولتها إلى جزئيات أو صور مختلفة)، حتى الأجزاء التى كانت تبعث فى أنفسنا الإحساس بالوحشة تعود وتتجمع وتبدو فى صورة قاعدة صخرية تعلو فوقها معجزة من اللغة والنور. فى كل مرة يبدو وكأن الله يعلو داخل الصوّر والكلمات من جديد عن طريق خلفى غامض ليغيب عن الأنظار مرة أخرى، يظهر فى صورة ثم يخفى هذه الصورة مرة أخرى، لأنه لا يمكن أن تسعه أية صورة فى الأرض ولا فى السماوات العُلَى (يقول تعالى).

﴿اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (سورة البقرة، أية ٢٥٥)[٣٦].

لقد وجد اختلاف فى تاريخ الفكر الإسلامى حول إجابة السؤال هل القرآن مخلوق فى الزمان أم أنه موجود منذ الأزل عند الله (غير مخلوق فى الزمان). وكان هذا الخلاف بين المفكرين الأحرار من جانب والمحافظين من جانب آخر. وهنا يمكن التمييز أيضا بين كلمة أزلية فى الذات الإلهية من جانب والقرآن المخلوق من جانب آخر.

يذكرنا هذا السؤال بالمشكلة التى وردت فى نظرية التحليل النفسى عند "يونج" حول ما إذا كانت الصور الأولية (الأنواع الأولية) للاوعى الكلى قد تكونت مع مرور الوقت أم أنها هى بذاتها العلل الأولية الأزلية للتطور (ذاته)، ويمكن اعتبار صور اللاوعى حلقة وصل بين هاتين المشكلتين (هذه الصور) هى التى ذكرتها (الباحثة) يولندا ياكوبى فى دراستها التمهيدية لعلم النفس عند ك. ج. يونج والتى رمزت إليها بالحكيم العجوز. هذا المثال الأول يجسد المبدأ الروحى الذى يملك، حسب تعبير يولندا ياكوبى، علما وفهماً قديمين لا محدودين. ومما هو جدير بالاهتمام أن الشكل المصدر الموجود فى الكتاب المشار إليه) يحمل فى يديه "بللورة" وهى "رمز للكلية". وهى التى تشير حسب تفسير المؤلفة، إلى الهدف الأسمى للتطور النفسى، أى إلى "الذات" (ص ١٩٣).

إننى بطبيعة الحال على وعى تام أثناء ذكر هذه الأمثلة بأن نموذج (مثال) البللورة أو الجوهرة بالنسبة إلى القرآن لا يستمد من شهادة ذاتية واردة نصا فى القرآن بقدر ما يعرض تصويراً لكيفية معايشته من خلال إنسان أسلم نفسه إلى عناصر صورته وسلوكه ولغته. أن فهم نماذجه وصوره الأولية (الأزلية) لا يتأتى إلا من خلال نظرة كلية شاملة لكل ما تضمنه من نماذج أولية إنها (هذه النماذج الأولية) ليست منعزلة بعضها عن بعض ولكن مترابطة مع بعضها فى علاقة قمة فى الفائدة وهى (النماذج الأولية) تعرض قوى خلاقة ملازمة ومتضمنة فى الألوهية هى قوى التصوير والتصور التى يمكن بواسطتها أن يحسب الإنسان (أو يعيش) فى عظمة الألوهية، وفى ذات الوقت توضح (للإنسان) صيغ وقوة الأوامر (الإلهية) التى هى أساس كل المخلوقات والوجود. إن كل حركات الطبيعة والتاريخ فى التطور الكلى (العام) والفردى (الخاص) تصدر فيما يبدو، عن التقاء نموذج أولى (أمر إلهى؟) مع حدث تاريخى.

ويقول ك. ج. يونج فى هذا الخصوص: "بالنسبة للإنسان العادى فإنه يصعب دائما تصور حدث لا زمانى أزلى على أنه هو ذاته أيضا حدث فردى تاريخى (زمانى)[٣٧].

إلا أن هذا الإنسان لابد له من أن يتعود على أن الزمن مفهوم نسبى يحتاج

إلى الامتداد من خلال مفهوم وجود ممتد يستوعب كل الأحداث التاريخية فى ذات الوقت. أما ما يوجد فى هذا الامتداد فى هيئة حدث أزلى فيبدو أنه ليس سوى تكرار غير منتظم (لذات الحدث) تكرارات عديدة غير منتظمة (الرد على هبوب المؤلف الأساسى مجلد ٢ ص ٤٢٩ وما بعدها)[٣٨].

بالنسبة للقرآن يحدث للإنسان الانطباع مراراً وتكراراً وكأن الأحداث التاريخية التى نعرفها نحن فى الكتاب المقدس أو مصادر (ثيولوجية) أخرى، تدور (فى القرآن الكريم) على مستوى عال من النماذج الأولية الأصلية. فمن الناحية الأدبية يظهر ذلك فى أن الأخبار الواردة فى الكتاب المقدس والمليئة بالمعلومات تتجه نحو أسلوب الأساطير. أنها تترك (عند القارئ) انطباعاً بأنها عبارة عن خلاصة مستخلصة من مادة أولية (غير نقية).

وبمقارنة الكتاب المقدس بالقرآن، يبدو الكتاب المقدس متوسعاً بشكل كبير، وعلى العكس من ذلك فإن القرآن محدد ومتنوع الموضوعات. ويمكن أن يعتبر القرآن تفصيلاً للكتاب المقدس. إن المسلم عندما يشعر أنه يملك الكتاب الحقيقى وهو القرآن الذى بشّرت به الكتب السماوية السابقة عليه هو محق (فى هذا الإحساس).

لقد سبق أن أوضحت فى البداية ما أسماها رودى بارت فى كتابه (محمد والقرآن ص ٨٩) "تنميط الرسل السابقين. وهذا ما أريد أن ألفت الانتباه إليه فى العرض الموجز الذى قدمه بارت) على النحو التالى: لم يكن اهتمام "محمد" بشخصيات تاريخ الرسل مقصوراً على ما يتعلق بيوم الحساب مطلقا، بل كل جوانب حياتهم وأفعالهم.

ويمكننا أن نضيف إلى ذلك أن ذكر المعاناة التى لقيها رسل الله كانت تحظى بذات الدرجة من الاهتمام.

وكلما ازداد اهتمامه بالصالحين السابقين عليه ازداد يقيناً بأن الأحداث نفسها تتكرر (معه). فلكل أمة أرسل رسول أو نذير أو مرشد (سورة الرعد أية ٨)[٣٩] إلا أن قومه اتهموه بالكذب وسخروا منه ورفضوا رسالته فكانت النتيجة أن عوقبوا (بالإفناء) بينما نجا الرسول.

حتى تاريخ الأمم التى كان لها شأن عظيم فى الجزيرة العربية عرضه النبى على ذات المنوال التنميطى. لا أريد القول بأنه أعاد صياغته من جديد. هود وصالح وشعيب الذين أرسلوا إلى عاد وثمود ومدين، نجوا جميعاً بينما هلكت أقوامهم (سورة هود ١١/٦١، ٦٩، ٩٧).

لقد أخذت قصة موسى مع فرعون نمطاً خاصاً من خلال وقوف موسى مع القلة المؤمنة (الإسرائيليين) فى مواجهة فرعون وقومه الكفار كثيرى العدد. وتجد الموقف نفسه من حيث المبدأ فيما حدث مع نوح ولوط وغيرهم من الصالحين وأقوامهم. (هذا يعنى) أن علامات الاختلاف (بين هؤلاء الرسل) قد تقهقرت أمام علامات التشابه مع مرور الوقت (المرجع ذاته ص ٨٩ وما بعدها). من خلال هذا التنميط (تحديد الشخصيات) والترتيب استطاعت رسالة القرآن احتواء الأحداث التى حدثت فى عصر محمد (انظر المرجع السابق ص ٩٠).

تبعاً لذلك يبدو أنه كلما جاء الوقت المناسب ظهر حدث من الأحداث المتضمنة فى وعاء الأحداث الجامع (Pleroma) الموجود فى الأزل (اللازمانية). ويأتى معه نظام أساسى لترتيب الأحداث التاريخية. ويرجع السبب فى حدوث ذلك أن تلك الأحداث متضمنة مسبقاً فى الوعاء الجامع الأزلى، أى فى أم الكتاب (اللوح المحفوظ). حتى أن الفكرة التى تقول: إن كل شىء هو فى حقيقته جزء من الإسلام الأصلى. متضمنة فى هذه العلاقة التنميطية الأصلية.

لم يكن فقط إبراهيم ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى مسلمين وبشروا بالإسلام ولكن آدم أول (أبو) البشر كان أيضا أول نبى وأول مسلم ومعه كل البشر الذين عاهدوا الله، فى وجود قَبْلى (سابق)، على الإسلام (يقول تعالى): ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (سورة الأعراف ٧/١٧٢).

وإذا التعبير بدقة فإن كل الخلق إسلام. لأن كل المخلوقات تسجد لله عند شروق الشمس وعند المغيب فى هيئة الظل الطويل الذى يلقيه على المخلوقات وقت الغروب (انظر سورة (النحل) ١٦/ ٤٨– ٥٠، سورة (الرعد) ١٣/ ١٥).

إن وصف الله(ﷻ)فى القرآن بالحكيم يشبه نموذج البللورة الذى يعكس النموذج المثالى للذات. وينطبق ذلك على النماذج الرمزية للشخصيات الكبرى مثل الرسل والمنذرين والقادة والأبطال والأنبياء. حينما وصلت هذه النماذج المثالية إلى إنسان ما انشرح صدره للإرادة الأزلية، التى تريد أن تتحقق فى هذا العالم، وسوف يصبح (هذا الإنسان) بشخصه وتاريخه (حياته) من خلال تجارب (أحداث) عصره صورة من صور هذا النموذج الأصلى (المثالى) أى يصبح أثراً من أثارها، إلا أن النموذج الأصلى، حسب التعبير الدينى، هو الله. هذه هى التجربة المطلقة التى يحملها القرآن بين ثناياه.

هذه التجربة (المعايشة) المطلقة يمكن مقارنتها بالتجربة الحتمية التى يعيشها المسيحى عندما يقف أمام صورة المسيح. والقرآن بصفته رمزاً للحدث الأزلى فى كليته يمثل، طبقا لما قاله يونج حول الصور الأولية (الأزلية) بشكل عام، حضوراً أزليا. ولا يتبقى سوى التساؤل حول إذا ما كان الوعى يمكنه إدراك ذلك أم لا (علم النفس وكيمياء السحر المؤلَّف الاساسى، مجلد ١٢ ص ٢٥٨).

يُذكر محمد فى سورة الأعراف بأنه أمى. إلا أنه لا يهمنا هنا بالدرجة الأولى ما إذا كان المقصود بهذه الصفة المعنى الحرفى لكلمة (أمّى) أم لا. الأهم هو أن هذا يعنى أن محمداً قد التقى (تلقى) بالنموذج الأصلى للوحى، وكان مستعداً لتلقيه. ولم يضف إلى ما تلقاه أى شىء ناتج عن تعلم أو تأمل عقلى دينى مهما كانت درجة معارفه أو تأملاته السابقة على (تلقيه)القرآن. لقد جاء النبى بصفته مبلغاً فقط، بالقرآن الرمز الكونى، إلى الأرض (كان موصلاً فقط لرسالة السماء القرآن إلى الأرض) تماماً كما وضعت مريم وحسب ما جاء فى الإنجيل والقرآن، "كلمةَ الله" عيسى (عليه السلام) وهى عذراء بتول.



المؤلف يحذر من محاولة التقليل من شأن فكر ليسينج (ناثان الحكيم) ويؤكد أنه خطوة إيجابية فى طريق التقارب بين الديانات الثلاث.

الفصل الثانى

حول الحجر الأسود

تعتبر مكة، حسب الروايات الإسلامية، أقدم مدينة مقدسة فى العالم. فيروى فى هذا الصدد أن آدم أبا البشرية(عليه السلام) قد تجول فى الجزيرة العربية بناء على أمر من الله. حتى وصل هذا الموقع، فلمح حجراً أبيض مضيئاً، وهو رمز للحكمة والنفس (الإنسانية). وبانبهار نظر إلى أعلى. لقد ذكّره هذا الحجر المنير بالنفس الإنسانية وهى علىٍ حالتها التى خلقت بها (فطرتها) قبل أن تقع فى الخطأ وتخرج من الجنة. لقد ذكّره (هذا الحجر) بنور الله الذى كان يراه (فيما مضى)، حينما كانت تضئ نفسه بالعلم الأول (الإلهى)، والذى كان يربطه مع الله ومع كل المخلوقات (الطبيعة). لقد طاف آدم سبع مرات حول هذا الحجر المضئ، ومن نفس ذاكرة كان يسبح بحمد الله، ثم جمع بعض الأحجار من جبل حراء وبنى منها بيتاً على شكل مكعب حول الحجر المقدس. وبسبب شكل هذا البيت المكعب سمى هذا المكان المقدس "بالكعبة" التى كتب على أبناء آدم أن يحجوا إليها، ويطوفوا بها ويسبحوا بحمد الله. ويسمى هذا المكان ومنذ أقدم العصور "البيت المقدس" وفى رواية أخرى جاء ما يلى:

عندما أمر كل من آدم وحواء أن يغادرا الجنة، هبطت حواء على الأرض بعد أن مرت من"باب الرحمة" فى مكان قريب من مدينة "جدة" عند مكة، بينما وضع آدم قدميه على مكان فى سيلون يسمى الآن "أثر آدم" (ويسمى هذا الأثر نفسه عند البوذيين "أثر قدم بوذا". وعند الهندوس يسمى أثر قدم "فيشنوس". ظل آدم لمدة مائتى عام فى سيلون بعيداً عن زوجته (حواء)، إلى أن تغمده الله برحمته وأمره بالتوجه إلى المكان الموجود على الأرض تحت العرش مباشرة. وقد استرشد آدم (فى رحلته إلى هذا المكان) بسحابة إلى أن وصل إلى جبل عرفات عند مكة حيث وجد حواء ثم تلقى هذا الزوجان السعيدان باللقاء بعد طول غياب أمراً إلهياً عن طريق الملك جبريل، بأن يبنيا مسجداً لله. وقد أعطاهما الملك جبريل حجراً أبيض مضيئاً ليكون حجر الزاوية لهذا البيت. وقد كان هذا الحجر فى الماضى ملكا قبل أن يجعله الله

حجراً. هذا الملك كان مكلفاً بحماية شجرة العلم فى الجنة. وقد أحاله الله حجراً عقاباً له على إهماله فى واجبه(٤٠). وبسبب كثرة لمس الحجر من الناس خلال الأزمنة المتعاقبة تغير لونه شيئاً فشيئاً إلى اللون الأسود بعد أن فقد بريقه، وسوف يبعثه الله يوم القيامة فى صورته الأصلية أى ملكاً ليشهد لكل من لمسه وسأل الله المغفرة.

وتنقل إلينا الروايات تفسيراً آخر وهو: عندما جاء الطوفان وأغرق الله الأرض كلها طافت سفينة نوح حول المكان المقدس سبع مرات. لقد حطم الطوفان كل شىء ولم يبقَ سوى الأساس الذى وصفه آدم (البيت العتيق). وقد أنقذ الملك جبريل الحجر الأسود من الطوفان.

بعد مرور أربعة آلاف سنة، سارت هاجر، أم العرب، على غير هدى فى الصحراء، بعد أن طردها إبراهيم (عليه السلام). وهى تحمل على ذراعيها طفلها الظمآن إسماعيل. وحينما شارفت على الموت ظمأ انطرحت على الأرض تدعو الله أن يساعدها بعد أن حل بها اليأس (من أن تجد ماء). وفى هذه الحال تفجرت تحت قدميها ماء زمزم. هذا الاسم (زمزم) يصور خرير الماء فى بئر زمزم. وكان ذلك تعبيراً عن العون الإلهى الذى سمعته هاجر لأول مرة. وقد استقرت هاجر وابنها إسماعيل فى هذا المكان الذى هو وادى الكعبة. وقد ظهر ذلك عندما جاء إبراهيم ليزور ولده إسماعيل بعد وفات هاجر حيث اكتشف إبراهيم الأساس الذى وضعه آدم (للبيت العتيق) فأعاد إبراهيم وابنه إسماعيل بناء الكعبة. وقد أعاد ملك الله جبريل الحجر الأسود إلى إسماعيل، إلا أن هذا الحجر المضىء قد اسود حزناً لكثرة عبادة الأصنام وانتشارها فى العالم.

وبعد مرور ألفى عام على ذلك جدت أمور كثيرة، فقد جاء أحد أبناء إسماعيل من قبيلة قريش وبنى لنفسه ولقبيلته مدينة مكة، ثم وصل عدد الأصنام التى وضعت حول الكعبة ٣٦٠ صنماً.

لقد كانت الجزيرة العربية أثناء حياة محمد (ﷺ) مليئة بالديانات القبلية البدائية رغم احتمال وجود آثار قوية لليهودية والمسيحية والغنوصية وذلك حسب اعتقاده الغالبية (من المهتمين بهذا الأمر).

وقد كان محور الدين القديم هو عبادة أحجار مقدسة (أصنام) كانت توجد فى مكان مقدس يسمى "الحمى" وبه بئر ماء، وكهف داخل الصخور (مغارة)، حديقة أشجار (منتزه)، قوافل من الجمال المقدسة. وقد كانت الأماكن المقدسة أماكن يلجأ إليها الفارون أو الهاربون من أخطار وتتهددهم حيث لا يسمح لأحد الاعتداء عليهم فى هذه الأماكن التى كانت تعتبر أماكن للسلام الإلهى. وكانت رحلات الحج السنوية تقارب بين القبائل المحيطة بهذا المكان فيجتمعون فى لقاءات ثقافية وتقدم فيها القرابين للأصنام. وكان الناس يطوفون حول الأحجار المقدسة (الأصنام) تقرباً إليهم وتقديساً لهم أيضاً عن طريق لمسها أو تقبيلها أو طلائها بدماء القرابين.

وكان الناس يعتقدون أنهم بطوافهم حول هذه الأحجار يتصلون بالقوة المقدسة الكامنة فيها أو بالذات الإلهية التى تسكنها. كان الحجر والإله أو أنثى الإله يشكلون وحدة قوة غامضة تظهر من خلالها الذات الإلهية مشخّصة (محسوسة فى شكل الصنم).

كانت مكة تشكل مع الكعبة والحجر الأسود (الذى هو فى الأصل كوكب صغير) مركز عبادة الأصنام التى كانت منتشرة فى الجزيرة العربية. ومن الأصنام الحجرية الأخرى المعروفة الحجر الأسود لإلهة القَدَرَ "مناة" فى مدينة قدير، وكذلك الحجر الصخرى المربع للإلهة الأم وإلهة السماء "اللات" (وهى كلمة مأخوذة باختصار من كلمة الإلهة) فى مدينة الطائف وأخيرا الحجر المقدس (الصنم) للإلهة "العزى" (بمعنى صاحبة القوة العظمى) فى مدينة نحلة، والتى كانت تدعى نجم الصباح. هذه الآلهة الثلاثة (المؤنثة) والتى ذكرها القرآن فى سورة النجم آية ١٩ وما بعدها كانت تُعبد أيضا فى مكة، وكان القرشيون يدعونها أثناء طوافهم بالكعبة ويقولون "واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى[٤١]" لأنهم هن أسمى المخلوقات[٤٢] ومحط آمال من يطلب الشفاعة (فيلها وزن: بقايا ديانات الكفر عند العرب ص ٣٤).

إن صورة الطير الأبيض (الأوز) التى كانت عليها الأصنام مأخوذة من بعض الأقوال العربية المأثورة التى تصف هذه الأصنام (المشبهة بالأوز) بأنها أرقى آلهة مكة. وقد كان هذا الوصف يطلق على أكثر الناس وجاهة ورقياً. وقد

كانت تلك الإلهه (الأصنام) الثلاثة تعتبر (عند العرب فى الجاهلية) بنات الله التى يطلب منها الناس الشفاعة عند الله.

هذا الوضع يظهر أن الله لم يمثل عند محمد (ﷺ) إلها جديداً استعاره من اليهودية أو المسيحية. لقد كان الإله بالمعنى الحقيقى هو رب البيت (الكعبة). وفى الكعبة كان يوجد الصنم الخشبى الذى يصور الإله "هُبَلْ" والذى لم تثبت له حتى الآن أية علاقة أكيدة بالله (الإله الحقيقى). وقد كان يُدْعى أحيانا بـــ"رب البيت" إلا أن ذلك لا يعد دليلاً على أنه المقصود بـــ"الله".

لم يظهر الله بالمعنى الحقيقى فقط فى الكتاب المقدس (اليهودية والمسيحية). إن الكتاب المقدس ذاته يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الوحى الدينى لم يبدأ بإبراهيم وموسى ولا حتى عيسى (عليه السلام). بل إنه قد بدأ حينما خلق الله السماوات والأرض. هذا التصور الخيالى لم يكن يوماً ما إسرائيلى الأصل كما كان يُعتقد لفترات زمنية طويلة.

ذكر عالم الشعوب والديانات فيلهيلم شميدت فى كتابة "أصل فكرة الإله"(١٢ مجلد ١٩١٢- ١٩٥٥)[٤٣] أبحاثا علمية كثيرة تثبت أن فكرة الإله الأول كانت موجودة منذ بداية التاريخ الدينى، هذا الإله هو الذى خلق السماوات والأرض. ولقد أطلق شميدت على هذه الفكرة "التوحيد الأول". ولا يوجد، فيما عدا ذلك، أى دين لا يستمد أصوله من هذا الإله الأول، وإن لم يذكر لهذا الإله اسما محدداً. هذا إله لا يمثله أى الإله آخر (من الأصنام). ولقد وجدت الآلهة أصلاً لتعبر عن عقيدة الألوهية التى وضعها الإله الأول (فى قلوب البشر). هذا الإله الخالق هو ذاته الإله الذى ترجع إليه كل الديانات. هو الإله المقصود (فى كل الديانات) وإن لم يذكر اسمه. وينطبق هذا التصور من بعض الوجوه على الكتاب المقدس الذى ذكر الإله الخالق بمسمى "إلوهيم" (الذات الإلهية) ولم يكن يسمى بداية باسم "يهوه". إن دين يهوه الموجود فى العهد القديم قد انعكس على العقيدة فى كل التاريخ البشرى والتى تتضمن أن إلهاً واحداً هو الذى أوجد سبب وجود العالم وتاريخه (وتطوره). ويُعتبر كل من دين الكتاب المقدس (اليهودية والمسيحية) والإسلام إحياءً للتوحيد الأول. وقد عاد الاعتقاد فى الإله مرة أخرى لتاريخ البشرية عن طريق هذه

الديانات (ديانات التوحيد). ولقد ذكرت مادة علمية غزيرة حول موضوع التوحيد الأول فى كتابى: من الطوطمية إلى صلب المسيح - أسباب منسية لتصوراتنا الواقعية- دورتموند- ١٩٧٦) مع محاولة لتوضيحها(٤٤).

ويدل اسم "الله" على وجود التوحيد الأول بين العرب حسبما يذكر ذلك "بارت" (R. Paret) بوضوح. إن المفهوم المشترك فى اللغات السامية لمصطلح الإله (Gott) هو فى العربية "الإله" وهو ما يتطابق تماماً مع المصطلح العبرى "إيلوواه" (eloah) إذا أضيفت إليه أداة التعريف "الـــ" (الإله al- ilah) وتعنى "الله" (Der Gott). إلى جانب هذه الصياغة المعرفة كانت توجد بالتأكيد الصياغة المضخمة المقابلة "الله" منذ زمن بعيد، حيث اختفى حرف " إ " (من كلمة "الإله" فأصبح "الله") وهى الصياغة التى اعترف بها الإسلام بشكل عام. وهذا مما يدعو إلى التفكر. يبدو أن الاستخدام المتكرر للكلمة المعرفة "الإله" (Der Gott) فى الحياة أدت إلى تطور هذه الكلمة فتغيرت صورتها بحيث سقط حرف (إ) من كلمة "الإله" لتصبح فيما بعد "الله" وهذا يدلنا على أن استخدام كلمة "الله" كان شيئا معتاداً وأكثر استخداماً من كلمة "هبل " أو أى اسم لأى إله آخر (محمد والقرآن - ص ١٥)(٤٥).

ويشير "بارت" بوضوح إلى آيات عديدة ذكر فيها أن محمد (ﷺ) طالب أعداءه (الكفار) بالإيمان بالله خالقا للعالم وموجد الحياة (٢٩/ ٦١- ٦٣، ٣٩/ ٣٩، ٣١/ ٢٤) والمنقذ من الغرق فى البحر (الآيات ٢٩/ ٦٥، ١٧/ ٦٩، ٣١/ ٣١). واتهمهم بعدم القدرة على التفكير المنطقى الذى يؤدى إلى الإيمان بالله وحده وعدم الشرك به. فى سورة يوسف الآية ١٠٦ جاء هذا المعنى واضحاً ومختصراً بأن القليل منهم يؤمن بالله ولا يشرك به شيئاً(٤٦).

ويذكر "بارت" تفسيرين لوجود الإيمان بالله بصفته "الأعلى" عند العرب القدماء، أى قبل أن يبعث محمد (ﷺ) وكل من التفسيرين يمكن ألا يتناقض مع الآخر. فإما أن يكون السبب فى ذلك هو وجود نوع من التوحيد البدائى (ليس المقصود هنا بكلمة بدائى المعنى السلبى لهذه الكلمة)، أو أن السبب فى ذلك هو تأثير الثقافات الموجودة آنذاك وهى اليهودية والمسيحية (المصدر السابع ص ١٦).

إلا أنه يمكن القول بأن تأثير اليهودية والمسيحية قد انحصر فى إحياء عقيدة التوحيد الأول (الذى كان موجوداً بالجزيرة العربية). ولقد طوره محمد فيما بعد (كما سبق ذكره) وخلصه من عناصر الشرك التى شابته.

وحسبما ذكرت "ميرسيا إليادة" فى كتابها (المقدس والدنيوى- ص ٧١ وما بعدها)(٤٧) أنه مما تميَّز به الإله الأول أنه قد ابتعد بنفسه عن الكون والثقافة. وحسب روايات بدائية (شعبية) عديدة لديانات قَبَلية (محلية) يبدو أن هذا الإله أصبح يميل إلى الراحة بعد أن انتهى من هذا الخلق العظيم، وأفسح المجال لقوى دنيوية ذات قدرة أكثر حيوية. مثل آلهه الأساطير، أمهات الآلهة ، إلهة الإخصاب..الخ. والتى كانت تسمى فى كثير من الأحيان أبناءه أو بناته (أبناء أو بنات الإله الأول). وفى الديانات البدائية تذكر "إلياده" أن الذات العليا قد فقدت حضورها الدينى (أهميتها الدينية)، فقد اختفت من الشعائر وابتعدت شيئاً فشيئاً عن الإنسان فى الحكايات والأساطير. إلا أن الإنسان ظل يلجأ إليه كملجئٍ أخير كلما خذلته الآلهة الذكور والإناث وآلهة الآباء والجان (انظر ص ٧٣). أما فى حالات الخطر المحدق الذى قد يهدد وجود الجماعة فيترك الناس الآلهة التى كانت تحمى هذه الجماعة فى الأحوال العادية (كما يعتقد هؤلاء الناس) ويتجهون إلى الإله الأعلى (ص ٧٤).

ويـذكر لنا القرآن مثل هذه المواقف التى كانت تحدث مع الكفار العـرب ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (الآية ٦١). ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ (آية ٦٣). ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ (الآية ٦٥). (سورة العنكبوت ٢٩/ ٦١، ٦٣، ٦٥).

إن ركوب السفينة يرمز إلى ترك العالم المعتاد والمنتظم والدخول إلى عالم البحر غير المأمون والملئ بالأخطار وكل مالا يمكن توقعه (بالمفاجآت) هنا لا يمكن للآلهة المعتادة (الأصنام) أن تقدم المساعدة لأحد، فلا يستطيع ذلك سوى الذى خلق الحياة والكون. وإذا عاد الإنسان إلى حياته المعتادة عاد دور الآلهة

المعتادة (التقليدية). ويختفى الإله الحقيقى من الواقع المعاش، وهذا ما عبر عنه القرآن بـــ "إذا هم يشركون" فى حديثه الموجه إلى المشركين.

إن التوحيد الأول هو الدين الأول. ومما هو بديهى فى الإسلام أنه أعاد للبشرية الدين الأول (دينهم الأصلى). فى هذا الصدد يكون لتمسك محمد (ﷺ) بقدسية الكعبة وتطهيره لها من رموز الشرك (الأصنام) معنى ذو قيمة عالية. وكما ذكرت م. إلياده فإن الإنسان الأول (آدم (عليه السلام)) أراد أن يسكن وسط ومركز العالم (انظر: المقدس والدنيوى ص ٢٦ وما بعدهما). فإذا كانت الروايات الإسلامية تذكر أن موقع الحجر المقدس يقع فى مقابل كرسى العرش فإنها بذلك تعبر عن أن الحجر المقدس يقع فى وسط العالم. لأن التفسيرات القصصية تذكر أن عرش الله يقع فوق نقطة مركز العالم.

فيما بعد أصبح هذا التفسير مناقضاً للقول بأن الصخرة (المقدسة) فوق جبل صهيون فى القدس، هى التى تقع فى وسط العالم، وقد ترتب على هذا التفسير الأخير القول بأن الكعبة سوف تنتقل إلى مكان الصخرة المقدسة (قبة الصخرة) يوم القيامة حسبما يذكر و.بيلتز فى كتابه قصص القرآن (ص ١٠٢ وما بعدها و ص ٢٦٩)[٤٨]. هذه الراوية تعيد إلى الذاكرة ما كان يعتقده البشر الأوائل بأن كل شيء مقدس يمثل مركز العالم. والحجر المقدس هو أحد رموز هذه المركزية. ويرمز الاهتمام به ووصفه بأن حجر الزاوية إلى خلق العالم. ويرمز المعبد المقام حوله إلى العالم، وحوله، أى حول هذا المركز المقدس قامت وأمته مجتمعات قديمة.

إن مصطلح الحجر المقدس يعتبر أحد المصطلحات الدينية العلمية التى تصلح لمنع وجود معنى عميق للروايات الدينية. قد يفوق قدرتنا على الفهم، يتحدث الإنسان حينئذ، كما فعلنا نحن هنا، عن أشياء نسبت إليها قدرات غير طبيعية (قوى خارقة للطبيعة) والتى لا تحمل فى داخلها سلطة خفية تجعلها موضوع تقديس دينى أو سحرى. وينظر الإنسان إلى أثر هذه القوة أو السلطة على أنها حقيقة خاصة كامنة فى التصور الأول للحياة[٤٩] والتى تنبعث منه التأثيرات السحرية لما يصنعه السحرة من أشياء[٥٠].

إلا أن علم التحليل النفس عند ك. ج. يونجس (C.G. Yung) يظهر لنا أن تقديس الأحجار فى العهود السابقة كان يتضمن سرّاً بشرياً غامضا، والذى من شأنه أن يضع الإنسان تحت تأثير قوى مفيد. إنه سر الذات التى هى بحق أعمق مركز حقيقى للإنسان. ليست "الأنا" هى التى يدور حولها الإنسان فى الأساس كما يبدو فى الظاهر، بل هناك مركز أعمق "من الأنا" هو الذى يشغل النقطة المركزية للإنسان، هو نواته التى لا يعيها. وبينما تشكل الأنا مركز الوعى بالنسبة له (للإنسان) فإن الذات تشكل مركز كل من النظامين الفرعيين أى : الوعى واللاوعى، الذى لا تخضع أعماقه للتحليل. إنه لمن الأهمية بمكان، حتى يحقق الإنسان ذاته، أن يجد هذا المركز ويضمه إلى وعيه الموسع. وفى حالة اللاوعى تكون هذه النقطة المركزية مُسقطة على الخارج وتكون الطاقة الباطنية لنفسه مُسقطة على موضوع خارجى يظهر فى صورة أولية عن طريق صفة رمزية. وهذا يعنى أن الإنسان يكون متصلاً بذاته أثناء أدائه للعبادات. إن الصورة الأولية للذات تتمثل فى الحجر الذى يعلو فوق غيره من الأشياء المحيطة به أو الذى يكون موضوعاً فى موضع خاص مميز.

فى هذا الصدد تقول مارى لويزه فون فرانز: "إن من المحتمل أن يكون السبب فى كون الحجر أكثر الأشياء تعبيراً عن الذات أن ماهية الحجر تظهر غالبا فى صورة نقية. إن الكثير من الناس تتملكه عادة جمع الأحجار التى تبدو غريبة الشكل ويحتفظون بها فى منازلهم دون أن يعرفوا السبب الحقيقى وراء هذا التصرف. يبدو أن هذه الأحجار تحمل لهم فى داخلها شيئا غامضاً. وكان الناس فى أقدم العصور يفعلون ذلك أيضا، فكانوا يعتقدون أن هذه الأحجار تحمل لهم القوة الحيوية، وأنهم قد عرفوا أسراهم بأنفسهم. فكما أن النفس الإنسانية تبدو من ناحية أكثر الأشياء اختلافا مع الحجر، فإن نواة اللاوعى فى الإنسان تبدو، على العكس من ذلك، أقرب ما تكون من الحجر. ففيه (فى الحجر) تتمثل صورة من صور الوعى التى هى وجود خالص، بعيداً عن الانصالات والخيالات والأحاسيس وتيارات فكر الأنا. إنها تشكل وحدة موجودة بكل بساطة دون تغير فى الماضى والحاضر. وربما يمثل (أو يرمز) الحجر ابسط، وفى ذات الوقت، أعمق تجربة يعيشها الإنسان لشيء أزلى لا يتغير (انظر: ج.

ك. يونج وآخرون، الإنسان ورموزه، ص ٢٠٩ وما بعدها).

وتشير مارى لويزفون فرانز فى هذا الصدد إلى جهود علماء الكيمياء فى العصور الوسطى فى سبيل الحصول عل ما يسمى "بحجر الحكماء". وقد عرف هؤلاء العلماء أن هذا الحجر الذى يبحثون عنه ليس سوى رمز لشىء لا يوجد إلا فى داخل الإنسان، وكما يقول كيميائى عربى اسمه مارينوس (خالد بن يزيد على الأرجح)، "هذا الشىء المسمى "حجر الحكماء" يُستخلَص منك أنت، أنت معدنه، ويمكنك العثور عليه فى داخلك". أو بطريقة أوضح "إنهم (علماء الكيمياء) يأخذونه منك وإذا عرفت ذلك ازدادت محبتك وتقديسك للحجر. اعلم أن هذه حقيقة لاشك فيها. إن حجر الكيميائيين يرمز لشىء موجود بداخلنا، هذا الشىء لا يمكن أن يضيع (يفتقد) ولا يتحلل، إنه شىء أزلى، لذلك يتحدث الكثيرون عن التجربة مع الله (أى معايشة الله) فى أعماق أنفسهم ويجعلونها مماثلة لما يرمز إليه الحجر، (انظر المرجع السابق ص ٢١٠).

إن هذا القول يعد أهم المعارف التى وصل إليها التحليل النفسى عند يونج، وفحواها أن الصور الأولية لأصل الذات والتى منها الصور الأولية للحجر هى ذاتها التصورات الإلهية، إنه لا يمكن عن طريق التاريخ الرمزى أو التاريخ الدينى أن نفرق بين صورة الذات وصورة الإله. إن تجربة البحث عن الذات هى عادة تجربة دينية أيضا. إن الطواف حول الحجر المقدس كما نراه عند الكعبة يتطابق مع الطواف التأملى (الفكرى) حول مركز الوجود الإنسانى الغامض.

إن مفتاح الفهم لهذه العلاقة العميقة هو ما ورد فى "أنيلا ياقه" وهو كتاب أسرار يابانى حول حدائق الأحجار، وقد جاء فيه: "يجب على الإنسان أن يتأمل فى الحجر قبل أن ينصبه، أن يضعه فى موقعه النهائى. فإذا وضع فى مكان أو نصب (أقيم) فلا يجب أن يتحرك عن هذا المكان، لأن مثل هذا التصرف من شأنه أن يزعج الروح التى تسكنه أو تثيره". ومن وجهة نظر علم النفس تمثل "روح الحجر" التى نتحدث عنها هنا ويقدسها الإنسان، التعبير عن إعادة إحيائه (إعادة إحياء الحجر) عن طريق الإنسان نفسه. إن ما يعيده للحياة هو على ما يبدو إسقاط لمحتوى اللاوعى، وهو الصورة الأولية للروح. وكون مثل هذه الإسقاطات لا

تُصنع بل هى موجودة من ذى قبل، أى أنها تحدث بلاوعى يمثل قانونا من قوانين علم النفس، (المرجع السابق ص ٢٣٣).

كان الإنسان يعجب أن محمداً (ﷺ) ربط تقديس الإله الواحد الحى بتقديس الحجر المقدس فى مكة أى بشىء يبدو أنه غير حى. ولا يوجد لهذا الأمر إيضاح سوى ما يقدمه علم التحليل النفسى. إن الإنسان لا يمكنه معايشة الله سوى من خلال أوصافه. أن ذلك يؤثر عليه بشكل أعمق من تأثير أية فكرة مجردة مهما كانت مثيرة. إن ما يظهر أثناء التجربة الدينية من تصور لله يعود إلى شىء لا يدرك ولا يمكن أن يتصور ولا تخضع ذاته إلى البحث ولا يمكن مقارنتها بأى شىء على الأرض. إن القرآن الذى هو مثل غيره من الكتب المليئة بالتجارب الدينية ملىء بتصورات لذات لا يمكنِ تصورها (الذات الإلهية).

ولكن إذا انطبعت صورة الله فى أعماق نفس الإنسان وبدأت تؤثر فيه فإنه يحدث له ما يدفع ويحرك فهمه لنفسه ولوجوده الحقيقى بشكل شامل ومتغير. إن الارتباط بالله هو دائما ارتباط بالنفس. ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر.

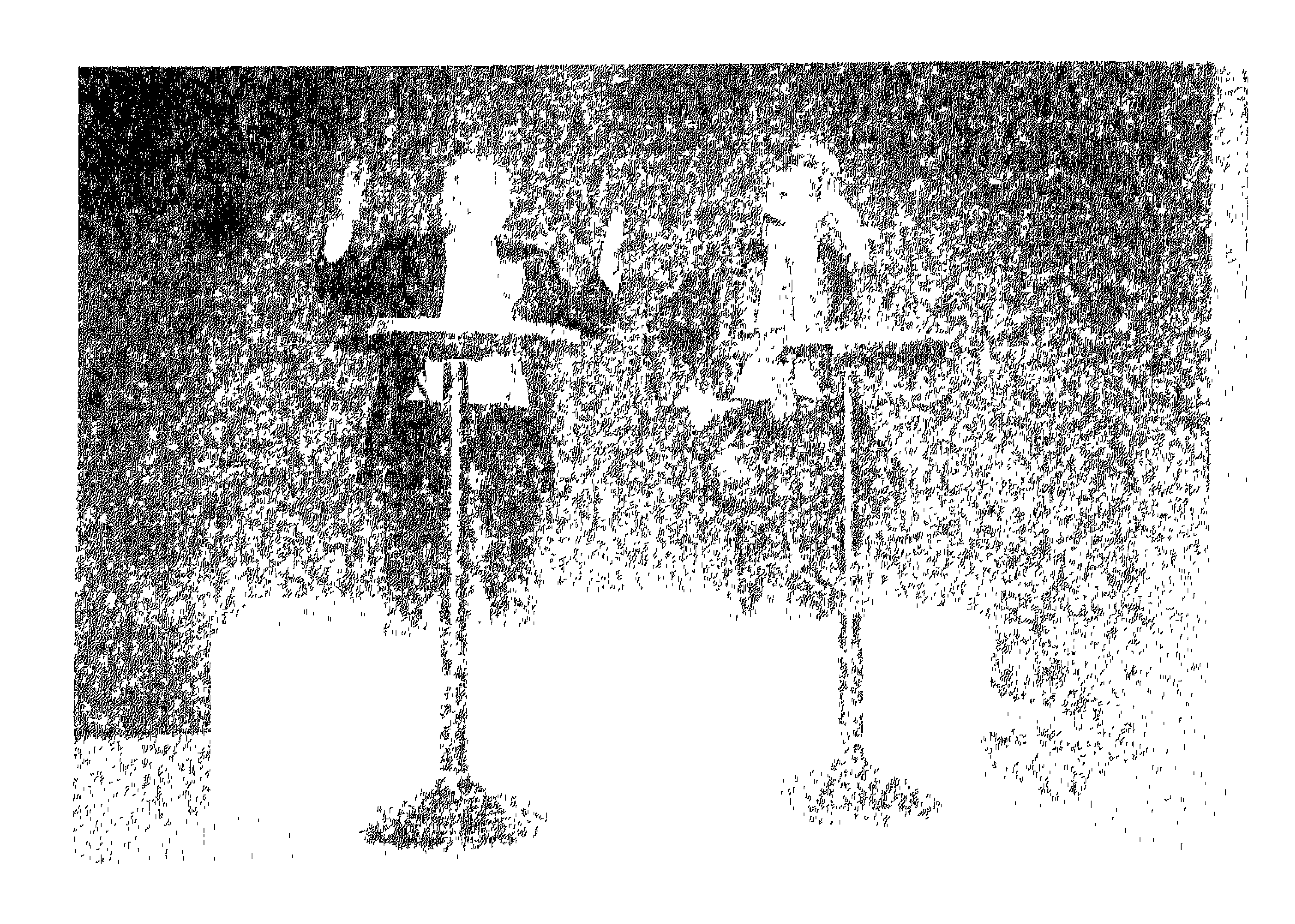
إنه لمن الغريب الذى يستحق الملاحظة أن الصورة الأولية للذات يمكنها أن تظهر فى شىء غير حى (غير مشخَّص) كما أنها تظهر أيضاً فى شىء حى (مشخَّص)، هذا يعنى أن هذين الشيئين (الوجهين) لا يناقض أحدهما الآخر بل يتكاملا. ويمكن أن نورد نصاً فى غاية الأهمية من الناحية الدينية النفسية وهو أحد نصوص التصوف اليهودي. ورد فى أحد المجاميع الكبالية اليهودية المسماة "شوشان سودرت" لموسى بن يعقوب الكييفى ورد تصور لذات تظهر لنبى فى هيئة وحى إلهى. وهذا يعنى أن النبوة هى عبارة عن لقاء الإنسان مع ذاته. وقد ورد فى النص الذى ترجمه جيرشوم شولم مايلى: "سر عظيم (عن مقولة مدراش)، إن قوة الأنبياء لعظيمة فهى تقارب بين الصورة والمصوِّر... لقد وجدت قطعة (نصا) من مؤلفات الأوائل (السابقين)، وقد دفعنى قلبى لكتابته وكان نص هذا التقرير (القطعة) مايلى: "قال لى الحكيم المتوفى الحبر ناتان (ناتان الحكيم): اعلم أن سر النبوة الكامل يكمن فى أن النبى يرى فجأة صورة ذاته ماثلة أمامه فينسى ذاته (الأنا) ويفتقدها فيرى ذاته ماثلة أمامه وهى تتحدث إليه وتنبئه بالمستقبل. وعن هذا

السر قال لنا حكماؤنا: إن قوة الأنبياء لعظيمة (ما أعظم قوة الأنبياء) الذين يقارنون بين الصورة التى تظهر لهم وتمثل أمامهم مع واهب هذه الصورة. وهكذا يقول أيضا العالم الحبر إبراهيم بن عزرا: الشخص الذى يسمع (فى النبوة) هو إنسان والذى يتحدث هو إنسان أيضا. وقال عالم آخر فى هذا الموضوع: "لقد التقيت بالقوة التى تحدث عن طريق جمع (أسماء الله) والتأملات الفردية وهذا ما عرضته فى كتاب "شعاره زيديك" حول النور الذى لازمنى فى طريقى. أما إدعاء أن صورة ذاتى قد مثلت أمامى فهذا ما لم أستحقه ولا أقدر عليه (لم أرق إليه)". ولقد ذكر عالم آخر فى مواضع كثيرة مايلى: أنا أعرف وأعترف بكل ثقة أننى لست نبياً ولا ابناً لأحد الأنبياء وأن الروح القدس لا يسكننى ولاسعة لى بسماع صوت السماء، لأننى لم أرق إلى هذه المرتبة الشريفة، ولم أضع ثوبى ولم أغسل قدماى، إلا أننى (رغم ذلك) أستشهد السماء والأرض، فى السماء شاهدى وضامنى فى العُلى، أننى كنت جالساً ذات يوم وأكتب بعض أسرار الكبالا[٥١] وفجأة رأيت صورة ذاتى ماثلة أمامى، وضاعت منى ذاتى (فقدت ذاتى) فأجبرت واضطررت للتوقف عن الكتابة.

أيضا عندما كنا نؤلف هذا الكتاب ونعيد تشكيل أسماء الله بعد أن اختلطت تشكيلاتها ظهرت أمام أعيننا أشياء مزعجة أشياء تشبه النار الحمراء التى تظهر عند غروب الشمس (واستمر ذلك) حتى أصابنا التيه وتركنا ما بأيدينا. وقد حدث لنا ذلك مرات عديدة أثناء تأليفنا لهذا الكتاب" (ج. شولم، حول التصور الصوفى للألوهية ص ٢٥١ وما بعدها). ويظهر فى النص المذكور شيء من الأسلوب الحماسى (العاطفى) الذى يرتبط بمثل هذه الأحوال (التجارب الذاتية). وسوف نجد عند الحديث عن بعثة محمد (ﷺ) مثل تلك التجربة. أما الشيء الذى يهمنا أولاً فهو أن المسلم فى الواقع يوجه نظره إلى إتجاهين مترابطين فى العمق. الاتجاه الأول هو إلى أعلى مرتبطاً بتصوره لله المشخّص[٥٢] (الحى) والاتجاه الثانى هو إلى مكة حيث يوحد الحجر المقدس (الحجر الأسود) الذى يمثل اللاوعى وهو صورة للذات الغامضة. ونجد مثل هذا التعبير أيضاً فى الدين المسيحى حيث نجد عيسى الإله الإنسان ممثلاً فى رمز شامل من الجماد وهو الصليب باتجاهاته

الأربعة (أعلى، أسفل، يسار، يمين). بينما يختفى مركزه (مركز الصليب الوسط)، ويكشف في ذات الوقت عمق وحجم الإنسان متمركزاً فى الذات مع سقوط (اختفاء) الأنا. وعلى هذا المنوال يضاف فى الإسلام تصور الإله المشخص (الحى) بصفته الصورة الأولية (الأولى) للذات، إلى صورة الحجر، الذى يمثل الكنز الموجود فى الأعماق (أعماق النفس البشرية).

يُحكى فى إحدى المقولات التى نسجت على منوال الآيات القرآنية أن الله تعالى، قد قال "كنت كنزاً مختفياً (مخبأً) إلا أننى أردت أن أُعرَف لذلك خلقت العالم(٥٣). ولا يمكن القول بأن الكعبة والحجر المقدس هما المكان الذى يقصده الله (تعالى) بالمعنى الحرفى لهذا القول، لأن الله (تعالى) لا يرتبط بمكان معين. والحقيقة أن ذلك (القول) يعد تعبيراً قوياً عن علاقة غامضة بين أعمق نقطة فى الإنسان من جانب وأعماق الحقيقة من جانب آخر وهى ما عبر عنه بالكنز المخبأ الذى أراد أن يُكتشف وهو الإله الذى ينبغى علينا ألا نبحث عنه فى السماء فقط. ومما يعبر عن عمق الفكر الدينى فى الإسلام ما قاله أحد متصوفة الإسلام وهو ابن عربى "إن قلبى (يعنى ذاته) أصبحت كعبة للحجيج". ويقول أحد شهداء (الإسلام) أثناء حالة من الوجد التصوفى: أنا الحق، أى الحقيقة المطلقة. ويعبر الحجر الأسود الأبيض (فى ذات الوقت) الموجود بالكعبة من حيث تطابقه المعنوى مع الصورة الأولية للذات اتحادا بين النقيضين، وتكاملاً (فى كلٍ متكامل) بذات المعنى الذى تعبر عنه قصة لقاء (اتحاد) المرأة والرجل وهو (الحجر الأسود) يعبر عن الكنز الموجود فى الأعماق (أعماق لنفس الإنسانية) بينما يأتى فى ذات الوقت من العلى (من السماء) حيث الجنة التى نبعت منها الحكمة الأزلية. وهو يعتبر حجر الزاوية للكعبة التى يرمز شكلها المكعب إلى الكلية (كلية أو تكاملية للكون).



المترجم يعقب على تعقيب المؤلف الذى يصغى إلى وجهة نظر المترجم حول شخصية الرسول محمد (ﷺ).

الفصل الثالث

النبي

(قال تعالى) فى سورة الشورى

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ(٥١) وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا...(٥٢)﴾.

ولد محمد فى عام ٥٧٠م فى مكة لوالديه عبد الله وآمنة. يقال إن الحيوانات قد نطقت عند مولده وبشرت بقدومه إماماً وقائداً للعالم. كما يروى أن عروش الملوك قد سقطت (اهتزت) وانتقلت حيوانات الشرق إلى حيوانات الغرب لتنقل لهم هذه البشرى. وقد رأت آمنة (أم الرسول) نوراً أضاءت به قصور البصرة وسوريا (فى العراق حاليا) والتف حولها (حول آمنة) لفيف من الملائكة وأحاطوها بإجنحتهم. وامتلأت الوديان والروابى بأناشيد الحمد والثناء الصادرة عن جموع الملائكة.

أما المولود لتوة فقد كان واضعاً يديه على الأرض للصلاة ورافعاً رأسه إلى السماء. وكلمة محمد تعنى "المحمود كثيراً". وكانت أسرته تنتمى إلى أحد الفروع الفقيرة لقبيلة قريش التى كانت تقطن مكة. ولقد توفى عبد الله (والد الرسول) قبل ميلاد ابنه (محمد). وتعنى كلمة "عبد الله" أحد عباد الله. هذا الاسم يذكر بالله الواحد سيد وخالق العالم. ولأن آمنة كانت فقيرة، وكانت آنذاك توجد مجاعة فى مكة. أعطى عبد المطلب جد محمد، الطفل لمرضعة من قبيلة مجاورة. وهناك كبر محمد مع ابن المرضعة التى كانت ترعى الغنم. وكثيراً ما كانت تصطحب المرضعة وزوجها الطفلين أثناء الرعى بمراعى الجبال. وتحكى لنا رواية آنذاك أن محمداً وأخاه من الرضاعة كانا يرعيان الأغنام وراء الخيام فجاء رجلان يلبسان ملابس بيضاء ومعهما إناء من الذهب كان به ثلج فشقا صدره وأخرجا قلبه (قلب محمد) وفتحاه وأخرجا منه كتلة سوداء، ثم غسلا جوفه بالثلج (الذى كان فى الإناء الذهبى)، ويقال إن أحدهما قال للآخر زِنْهُ مقابل مائة من قومه، إلا أنه كان أثقل من ألف، وكان وزنه يعادل وزن قومه مجتمعاً(٥٤).

ولما بلغ ستة أعوام أخذته أمه (من المرضعة) إلا أنها (أمه) توفيت فى العام نفسه. فأصبح محمد طفلاً يتيماً. أخذه جده ليكمل رعايته إلا أنه بعد عامين توفى أيضا جدُّه عبد المطلب فتولى العناية به عمُّه أبو طالب الذى كان له تأثير كبير فى المدينة، وكان له بيت مثل بيوت التجار الأثرياء. وقد أخذ (أبو طالب) محمداً البالغ من العمر أثنا عشر عاماً آنذاك معه لأول مرة فى رحلة تجارية إلى سوريا، وكان ذلك يعنى أن أبا طالب اختار محمداً ليعمل معه فى التجارة.

ينبغى علينا ألا نعجب من أن مثل هذه القصة وهذا الحدث كانا قد رويا عن عيسى الذى كان قد بلغ اثنا عشر عاماً من عمره حيث كان القدر العظيم (بالاختيار الإلهى) مع بداية حياته العملية. وتقول الرواية: إن راهبا (نصرانيا) يسمى بحيرة كان يعيش فى البصرة التى كان يقصدها التجار. هذا الراهب لم يكن يهتم بتجار مكة، إلا أنه فى ذلك العام عندما مرت به القافلة التجارية من مكة دعاهم إلى وليمة كبيرة. وكان قد استرعى انتباهه وجود سحابة كانت تظلل على محمد وتتبعه حيث ذهب حتى أثناء جلوسه تحت الشجرة كانت هذه السحابة تظله كلما تحركت الأغصان فوقه بفعل الرياح حتى توفِّر له البرودة لتحميه من حرارة الشمس، ولما جاء المّكيُّون حيث كانت الوليمة، لم يكن معهم محمد. وبحث بحيرة عنه فلم يجده بينهم ولم ير فيهم العلامة (السحابة) التى قرأ عنها وعرفها من كتابه المقدس الذى كانت به العلامات الدالة على النبى المرتقب. وعندما سألهم عنه أجابوه أنهم تركوا الغلام عند أمتعتهم تحت الشجرة. وعندما حضر محمد بناءً على طلب من بحيرة، سأله عما يراه فى نومه (أحلامه) وعن علامات مميزة فى جسمه. وكان مارآه بحيرة وما سمعه من الطفل مطابقاً تماماً لما وجده فى كتابه. وقد آكتشف بحيرة خاتم النبوة بين كتفى الطفل فى مكان محدد. ثم سأل (بحيرة) أبا طالب عن قرابته للطفل، ولأن أبا طالب كان قد تبنى الطفل أجابه بأنه هو والد الطفل فرد الراهب بأن هذا لا ينطبق على ما فى الكتاب. فرد أبو طالب على الراهب قائلاً: الحق معك فإن أبا الطفل قد مات عندما كانت أمه حاملاً فيه. كبر محمد عند أبى طالب حتى أصبح رجلاً، ولم يمر وقت طويل حتى أصبح محمد يقود بنفسه قوافل التجارة بتكليف من عمه (نيابة عنه) وقد خضع له كل العاملين فى القافلة طواعية

وكانوا يقدرون فيه نبل خلقه واستعداده للمساعدة والعون وكذلك أمانته، حتى لقب بعد فترة وجيزة بالأمين وعرف بهذا اللقب فى كل أرجاء مكة.

نحن لا نستطيع القطع بالحكم على الرواية التالية هل هى مجرد رواية (قد تكون خيالية) أم أنها حدث تاريخى. على أية حال فإنها تنبؤ عن شيء سيحدث فى المستقبل. فقد قرر أهل مكة إعادة بناء بيت الله (الكعبة) فلما هدموا بقايا المبنى القديم وجدوا فى أساس المبنى كتاباً بالخط السريانى يتضمن شهادة التوحيد. وعند إعادة البناء تولى كل فرع من فروع قبيلة قريش حمل الأحجار و بناء جدار من جدران الكعبة، إلا أنهم عندما وصلوا إلى الارتفاع الذى ينبغى أن يوضع فيه الحجر الأسود تنازعوا فيما بينهم حول من يحق له أن يضع الحجر الأسود فى موضعه المقدس. فى هذا الوضع الحساس اقترح أحد كبار القوم بأن يترك هذا القرار إلى أول شخص يصل إلى البيت الحرام، فكان أول من دخل إلى المسجد (البيت الحرام) هو محمد، فصاحوا إنه الأمين. ولا أحد غيره يحكم فى هذا الأمر. فأحضر محمد قطعة من القماش ووضع بيده الحجر فيه وطلب من ممثلى فروع القبيلة أن يحمل كل منه القطعة بالحجر من أحد أطراف قطعة القماش ويحملوه جميعاً ويرفعوه إلى حيث يوضع الحجر الأسود ثم رفعه محمد بيده ووضعه فى موضعه بالمبنى. وكانت هذه المرة الأولى التى يوحّد فيها محمد بين قومه.

لم يكن لمحمد أية مكاسب مادية من خلال قرابته لعمه أبى طالب. أما استقلاله المادى فقد جاءه عن طريق الزواج من (السيدة) خديجة، وهى سيدة أعمال نبيلة، حيث كان محمد يعمل موظفاً عندها ومشرفاً على قوافلها التجارية التى كانت تسافر إلى سوريا، وكان عمره آنذاك خمسا وعشرين سنة، وكان عمر خديجة أربعين عاماً وكانت حياتهما الزوجية حياة سعيدة جداً حسب ما نعلمه. وقد ثبتت معه أثناء مروره بصعوبات نفسية، ورافقته خلال رحلة بحثه عن اليقين الدينى.

ربما لن نتمكن من معرفة الإجابة الكاملة اليقينية عن السؤال حول المصادر التى حصل منها محمد على معارفه الدينية، وما هى المؤثرات التى تأثر بها آنذاك. فمن المحتمل أن يكون قد حصل بعض المعلومات عن اليهودية والمسيحية أثناء رحلاته التجارية إلى سوريا. والتى لم تنحصر فى معلومات محافظة

(أرثوذكسية) من المسيحيين السوريين.

لقد كان الشرق آنذاك مأوى لبعض العقائد الأساطير التى كانت تعتبرها الكنيسة الرسمية هرطقة مرفوضة. وكانت فى الشرق حركات مقاومة ضد كنيسة القيصر البيزنطى. كانت مكة تقع فى منطقة التوتر بين الكنيسة القبطية فى مصر التى ترى أن المسيح ليس إلا انعكاساً لنور الله من جانب، والكنيسة النسطوريانية التى كانت تؤيد المملكة الأرضية (الدنيوية) فى الشرق والتى كانت تؤكد على الجانب البشرى فى طبيعة المسيح. وقد كان لليهودية تأثير هام فى الجزيرة العربية. كانت توجد آنذاك تجمعات (قبائل) يهودية فى تيمة و فدك وخيبر ووادى القرى والمدينة (ر. بارت: محمد والقرآن، ص ١٠).

وربما لا يكون ضرورياً أن نذهب إلى بعيد فإن من الممكن أن يكون محمد قد وجد فى مكة بعض المصادر التى أثرت فى فكره الدينى. لقد كان ورقة (ابن نوفل) والد خديجة (هكذا، وهو ابن عمها مسيحياً. وتذهب بعض الأبحاث الحديثة إلى إمكانية وجود بعض من الآثار الثقافية المسيحية فيما قبل الإسلام بالقرب من الكعبة.

إنه لمن المحتمل أن تكون الأصنام التى بلغ عددها ثلاثمائة وستين صنما هى مقدسات مسيحية حيث كان الناس، حسب العقائد السريانية القديمة، يتعبدون كل يوم لأحدهما. على أية حال فإنه يروى أن محمداً كان قد أمر بإزالة صورها من حوائط الكعبة، بينما حافظ بذراعيه على صورة كل من عيسى وأمه مريم. ولم تمح هذه الصورة إلا بعد مرور ستين عاماً (انظر: و. بيلتز، أساطير القرآن، ص ١٠٠).

أيا كان الأمر فإنه لابد من وجود تأثيرات مسيحية غنوصية فى فكر محمد. كان و. بيلتز على حق حينما أشار إلى ملامح قريبة من أسلوب القرآن لشخصيات وأنبياء من الكتاب المقدس وجدت فيما سمى بالكتابات الغنوصية المنسوبة إلى شيت[٥٥] والتى عرفناها عن طريق آثار نجع حمادى. لقد ذكر آدم وشيث وموسى كمعلمين وحاملين للعلم الذى يؤدى إلى الخلاص (النجاة).

إن المعرفة فى الغنوصية تؤدى الدور نفسه الذى يقوم به العلم فى الإسلام بصفته شرطاً للخلاص (النجاة) ويمكن الاختلاف الأساسى هنا فى الأداء الأسطورى (المتميز) لمحمد، يتمثل فى إلغاء الثنائية الغنوصية التى تقسم الأنبياء إلى صادقين وكاذبين انطلاقا من الإيمان بوجود قوتين متصارعتين (الخير والشر، الروح والمادةن النور والظلام)، فنجد محمداً قد ألغى هذه الثنائية من خلال قدرة الله المطلقة (و. بيلتز. المرجع السابق ص ٩٤ وما بعدهما). وقد ذكرنا فيما سبق مثالاً لوجود أثر يهودى مسيحى غنوصى فى قصص القرآن فيما يتعلق بالإنسان الأول آدم (عليه السلام) الذى وضع الله فيه علمه كله عن طريق الوحى الصادر عن العالم النورانى (انظر و. بيلتز، المرجع السابق، ص ١٠٠).

ألا تجد الآية المحيرة رقم ٤٢ من سورة (فاطر)، والتى جاء فيها أن المكيين قد أقسموا بالله جهد أيمانهم أنهم سيكونون أهدى من الأمم الأخرى إذا جاءهم نذير[٥٦]، تفسيرها فى أن التصور والانتظار لرسول لم يأت بعد كان موجوداً فى المحيط الثقافى اليهودى – المسيحى الغنوصى فى مكة قبل محمد؟ لا ينبغى لهذا العرض أن ينسينا ما ذكرناه فى باب سابق عن التوحيد الأول عند العرب حيث ينتسب إلى هذه الدائرة كل من كان يبحث عن الله. وكان يطلق على هؤلاء مسمى غامضاً وهو "الحنيفيون".

لقد وجد على فترات متفرقة فى الجزيرة العربية القديمة قبل محمد بعض من كانت لهم القدرة على التأمل والتدبر وأصبحوا لا يجدون فى عقائدهم ما تسكن له أنفسهم، وكان عندهم الاستعداد للتعرف على اتجاهات (أخرى) وتبنيها، والتى كان بعض المسيحيين واليهود، إن صحَّ هذا التعبير، يقدمونها باستمرار.

وتدلنا تعبيرات القرآن على أن هؤلاء الناس كانوا من الموحدبن (على دين التوحيد) وهنا أصبحت كلمة "حنيف" تطلق على المسلم الموحد. وينسب هذا التوحيد عادة إلى إبراهيم (عليه السلام). وفى مواضع عديدة (من القرآن الكريم) كان الموحد هو من ليس بكافر ولا مشرك (بارت، محمد والقرآن، ١٧). ويمكننا أن نضيف إلى ذلك بعض الإيضاحات، منها أنه من الغريب أن مصطلح "حنيف" الذى هو فى أصله اللغوى كلمة مأخوذة عن اللغة الآرامية، كان يعنى "كافر" ويمكن أن

نفسر ذلك بأن "الحنيف" هو الإنسان الذى كان يبحث عن طريق ثالث غير اليهودية والمسيحية. إلا أن هذا التفسير وحده لا يكفى. وأكثر من ذلك فإن كلمة حنيف كانت ترتبط فيما سبق بعبادة النجوم. وتبعاً للروايات اليهودية فإن إبراهيم كان أول مخترع لعلم التنجيم الكلدانى[٥٧] (من بلاد الكلدان) وعلم الفلك الأول[٥٨]. وقد ترجم فيلون الإسكندرانى[٥٩] عبارة "إبراهيم" العبرانى "إلى" إبراهيم الكلدانى وعندما يدع القرآن إبراهيم يعرف ربه من وراء النجوم فإنه بذلك يكون "الموحد الكلدانى" الذى تعرف على الخالق من خلال الخلق، وهذا هو المعنى الذى تدل عليه الآن كلمة "حنيف". وبذلك أصبح الحنيف هو الموحد الذى لا ينتمى إلى الكفار ولا اليهود والنصارى، بل هو الإنسان الذى يحمل فى قلبه دين إبراهيم الأول. (حول هذه المشكلــة المعقدة انظر: ن. أ. فارس، هارولد و. جليدين: تطور المعنى القرآنى لــ "حنيف"، فى القرآن، أشرف على نشره ر. بارت ص ٢٥٥ وما بعدهما).

لقد كان للكهان أو السحرة دور خاص فى الجزيرة العربية فى عصر الجاهلية، وكان العرب يلجأون إليهم فى الأمور الخاصة بالقبيلة خاصة فى شأن الحروب وكذلك فى الأمور الخاصة الأخرى لقد كان بإمكانهم (حسب زعمهم) تفسير الأحلام وإعادة الجمال الضالة وكشف الجرائم. يحصل هؤلاء (الكهنة) على معارفهم عن طريق نوع من الإلهام الذى يأتيهم حسب أقوالهم من كائن روحانى (الأرواح) له أسماء عديدة مثل: صاحب تابع رأى أو رئى (بمعنى السحر) أو ببساطة من الجن إلا أن هذا الكائن الروحانى لم يكن سوى من أنواع الأنا أى أنا ثانية للكاهن (العرّاف) وكلٌ من الأنا الأولى والأنا الثانية كان يربطهم نوع من القرابة (ر. بارت، محمد والقرآن ص ٢٢). وكان يظن فى الشعراء ما يشبه ذلك، كأنه مجنون بمعنى أن جنًا يسكنه ويوحى إليه (بالشعر). وكان الكاهن يستخدم فى أقواله نوعاً من النثر بمعنى جمل أو أجزاء من جمل تنتهى بثقافية، إلا أنها تختلف عن الشعر الموزون (العروض). ويتطابق ذلك تماماً مع ما أوحى فى السور الأولى من القرآن. ويذهب التطابق الشكلى بين عبارات الكهنة والسور الأولى من القرآن إلى حد أبعد من ذلك. فيأتى الخطاب فى صيغة المخاطب لأن المتكلم هو الكاهن الروحانى (الجن) بينما يكون الكاهن هو المخاطب. ولابد أن نولى شيئاً

قدراً أكثر من الملاحظة وهو أن الكاهن كان يؤكد أقواله بصيغ مميزة من القسم، فيقسم مثلا بالسماء والأرض والنجوم والنور والظلام وبأنواع معينة من الحيوانات والنباتات. وتشبه هذه الأنواع الغامضة من القسم ما بدأ له محمد بعض السور الأولى. وقد لاحظ المعاصرون لمحمد هذا التطابق بين العبارات المستخدمة فى الحـــالتين، وإلا مكان من الصعب عليهم أن يتهموه بالكهنوتية (سورة ٥٢/ ٢٩، ٦٩/ ٤٢) (المرجع السابق ص ٢٢ وما بعدهما)[٦٠].

ولقد كانت حالة التوتر الاجتماعى السائدة آنذاك ظروفاً مناسبة لظهور هذه الشخصيات القلقة. ولقد استغل القرشيون الموقع الجغرافى لبلدهم فى أواخر القرن السادس (الميلادى) استغلالا إستراتيجيا. فقد كان الطريق التجارى الذى يربط الغرب بالهند يمر بمكة مما ترتب عليه تمتع هذه المدينة بميزة تمكنها من السيطرة عليه (الطريق التجارى) واستغلال ذلك على أحسن ما يمكن (ريتستيانو: محمد، ص ٢١ وما بعدها). وزاد من هذا الوضع أن القبائل العربية كان يسودها نوع من السلام الإلهى فى شهر رمضان مما كان يؤدى إلى اتحادهم. وكانت القوافل التجارية تحمل معها على هذا الطريق الآمن إلى جانب البضائع الأضاحى والهدايا والتمور من الواحات والأبخرة من الجنوب فى مملكة سبأ وأسلحة وحبوب وزيوت وأقمشة قطنية حتى الأحجار الكريمة والحرائر من الهند والصين، كل ذلك كان يصل إلى هذه المدينة (مكة).

لقد كان القرشيون يبيعون الماء والخبز للحجاج بأسعار خيالية وكانوا يسمحون بالصلاة فى الحرم فقط لمن يدفع لهم مبالغ خيالية فى مقابل الصلاة وتقديم الأضاحى والقرابين (للأصنام). وهكذا نشأت طبقة غنية (فى مكة). وقد فُرض على العبيد والفقراء السكن فى ضواحى خاصة لا يخرجون منها ولأن الأغنياء كانوا يستأثرون لأنفسهم بالمال فقد اضطر الفقراء إلى الاقتراض منهم فكانوا يضطرون إلى الاقتراض بفوائد ربوية لا تقل عن ٥٠% فامتلأت المدينة الغنية بالمتسولين وضعفت الروابط الداخلية بين القبائل. وقد أدى وجود طبقة غنية جداً إلى جانب الطبقة العاملة (الفقيرة) إلى تمنى وجود مجتمع تسوده العدالة. إلى جانب ذلك اتجهت قوى تجارية فى المدن العربية إلى التوحد حتى تضمن سلامة

الطريق (و. بيلتز) أساطير وقصص القرآن، ص ٨. ظهر آنذاك اتجاه قوى للاستقلال الشخصى الذى نتج عن تفكك الترابط القبلى. وسوف يحقق محمد بدعوته للإسلام تلك الاحتياجات (العدالة الاجتماعية) ويحقق للمجتمع الصفة الدينية ثم السياسية بعد ذلك.

قريباً من المدينة كان يقضى محمد ليالى كثيرة وحيداً فى غار حراء. فى هذه المغارة كان يقضى ليالى كثيرة فى تأملات دينية، قضى هناك أياما كثيرة وهو فى وحدته. وكان يعود إلى خديجة (زوجته) فقط لأخذ بعض الطعام الذى يكفيه لعدة أيام أخرى (يقضيها فى المغارة). وذات مرة كان محمد موجوداً فى المغارة فى شهر رمضان فجاءت الليلة التى ستكون أقدس ليلة فى حياة محمد، ليلة القدر، ليلة التقدير، ليلة القُدرة. ففى ليلة القدر نزل جبريل بالقرآن من السماء السابعة، وقد حددت هذه الليلة بإحدى ليال الوتر فى الخمس الأخيرة من شهر رمضان. وعنها تقول السورة التى تحمل اسمها، سورة القدر:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ(١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ(٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ(٣) تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ(٤) سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ(٥)﴾.

بعد طول سهر كان محمد يغط فى النوم هذه الليلة. وكان كثيراً ما يرى أحلاماً فى نومه قبل أن يأتى الفجر إلا أنه الآن رأى بوضوح تام رسولاً يقف أمامه، ذا قوة عظيمة وكان يحمل فى يده لفافة تحتوى على كلمات مخطوطة. قطعة قماش من الديباج تضىء عليها الحروف، واقترب منه الرسول شيئاً وناداه الملك بصوت غليظ اقرأ! فرد محمد بخوف: ما أنا بقارئ، وعند ذلك دفع إليه الملك بقطعة القماش وقال له ثانية: اقرأ! فأجاب محمد: أكاد أموت، ما أنا بقارئ، إلا أن الملك لم يتركه وبدا محمد وكأن الملك سوف يخنقه بقطعة القماش، وسمعه يقول له للمرة الثالثة: اقرأ، فرد عليه محمد وهو فى حالة من الخوف تكاد تقتله بسؤال ماذا أقرأ. فسمع محمد الملك وهو يقول له:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ(١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ(٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ(٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ(٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ(٥) كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى(٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى(٧) إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى(٨)﴾.

فردد محمد أثناء نومه[٦١] ما قاله الملك كلمة بكلمة. ثم ابتعد عنه الملك وعندما استيقظ محمد من نومه أحس وكأن هذه اللفافة المكتوبة قد أنزلت فى قلبه. قام محمد فى هذه الليلة وصعد الجبل، وعندما نظر من هناك رأى فى الأفق شيئاً على هيئة رجل عظيم الحجم فابتعد ببصره عنه وقد بهره هذا المنظر، إلا أن الملك كان يقف فى كل مكان كان يتجه إليه محمد ببصره، كأن الملك ينظر إليه أينما اتجه محمد ببصره، إلى أن يمكنه الهروب، ثم توارى الملك أخيراً. عاد محمد إلى بيته مشتت الذهن هل أصابه مس من الجان؟ هل أصابه مرض عقلى؟ هرع إلى خديجة ووضع رأسه على ركبتها. كان قلبه يرتجف، قال لها: أنا خائف ثم قص عليها بصوت متقطع ما حدث له، وأثناء ذلك كان يكرر عبارة زمّلينى زمّلينى، دثرينى دثرينى حتى لا أرى شيئاً. يا خديجة إنى أرى نوراً وأسمع صوتاً، أخشى أن أكون قد أصبحت كاهنا، فواست خديجة زوجها قائلة لم يخذلك الله، وليس بك مس (من الجان)، ولم تصبح كاهنا، إن الله قد اصطفاك نبياً لهذه الأمة. لقد جاءك الملك جبريل، كما جاء لموسى، وهذا ما قاله ورقة (بن نوفل) ابن عم خديجة، وكانت قد أسرعت فى طلب مساعدته لها فى أمر محمد.

وكما هى حال كل نبى صادق أراد محمد التأكد من صدق نبوته أولاً. ويوجد فى القرآن ما يدل على أن محمداً كان يعتقد أنه رأى الله فى منامه. وتحت تأثير الخوف القاتل كانت تظهر أمامه الصورة الروحانية التى تصورها هو لله وكأنها هى الله ذاته. وفى سورة (النجم) الآية ٥- ١٠، جاء فى القرآن:

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى(٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى(٦) وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى(٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى(٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى(٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى(١٠)﴾.[٦٢]

إلا أن محمداً قد غير فى مرحلة لاحقة من تفسيره لما كان يراه ويعتقد أنه ذات الله وأصبح يعتقد أنه الملك المنزل (جبريل).

لقد أسهمت بالتأكيد المناقشات التى دارت داخل العائلة وبتأثير من خديجة وورقة فى توضيح هذا الحدث. لقد تردد السؤال كثيراً عما إذا كان مارآه محمد هو الله أو هو الملك أو أنه كان قد تملكه جان. هل بعثه الله حقاً أم أنه أصبح أحد الكهان من الذين كانوا يظهرون من حين إلى حين وبثيرون بلبلة بين أهل مكة؟ لقد كان محمد يفكر فى بعض الأحيان أن يضع حداً لحياته. إلا أن خديجة كانت

تواسيه دائما، وكانت أول من صدقه وآمن بنبوته حينما كان محمد نفسه لم يتيقن بعد من الله قد أوحى إليه بالفعل. وقد جاءه الوحى مرة أخرى، إلا أنه فى هذه المرة لم ير الملك ولكنه سمع صوتاً يقول: ﴿وَالضُّحَى(١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى(٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى(٣) وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى(٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى(٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى(٦) وَوَجَدَكَ ضَالا فَهَدَى(٧) وَوَجَدَكَ عَائِلا فَأَغْنَى(٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ(٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ(١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ(١١)﴾.[٦٣]

لقد تحدث محمد عن تجربته لمدة ثلاث سنوات فقط مع أقرب الناس إليه. وكان يفرق بحسم بين أفكاره هو وبين ما كان ينزل على قلبه من الكلمات التى كان يسمعها (من الوحى). كان عليه أن يحرص عليها (على حفظها). وكان لا يريد سوى أن يكون الأداة (الوسيط) التى تبلغ كلام الله الذى كان يتلوه عليه الملك. لم تختلط بهذا الكلام كلمة واحدة منه (الرسول). وقد كان الوحى يأتيه على فترات متقطعة حتى وفاته. وعندما كانت الآيات الموحاة إليه والتى كان عليه أن يتركها تدخل قلبه كان يقع على الأرض وكأن حملاً ثقيلاً كان يلقى عليه ويكاد يجهز عليه لثقله. وكان يحفظ الوحى كلمة بكلمة وهو متدثر فى بردته، ثم كان يقف بعد ذلك ويبلغ ما كان ينزل على قلبه من آيات الله وليس من كلماته هو. لقد أعطانا "ديرمينجهيم Dermenghem" وصفاً واضحاً للأحوال النفسية التى أنزل فيها القرآن على محمد: عندما كان محمد يحس بقرب نزول الوحى كان يعتريه إحساس بالبرد الشديد والقشعريرة، وكان عادة ما يطلب غطاءً أو رداءً حيث كان يسمع الحاضرون أنيناً وحشرجات وصراخ وبعد انقضاء الوحى كان يبدو محمد غارقاً فى عرقه وينتابه الصداع، وكان محمد يعالج هذا الصداع. بالكمادات (لفائف من القماش المبلل).

حينما كان محمد جالساً على بعيره أثناء حجة الوداع نزلت آية (آخر التنزيل) خر بعيره من قوتها (ثقلها) على الأرض. وأثناء نزول الآية (٩٦)[٦٤] من سورة (النساء) التى كانت تتحدث عن الذين تكاسلوا عن الجهاد (القاعدون) نادى محمد غلامه زيد بن ثابت، وجاء رجل كفيف ليظهر للرسول براءته مما اتهم به. وعندما كان محمد يضع فخذه على فخذ زيد أثناء الجلوس أحس زيد بثقل شديد كاد أن يسحق عظامه وكان ذلك أثناء نزول الآية التى جاء فيها استثناء أولى الضرر (فى الآية الكريمة سابقة الذكر).

جاء رجل إلى عمر وطلب منه أن يستأذن محمداً في أن يراه أثناء نزول الوحى. جاء الوقت المناسب لذلك فى الطريق إلى مكة، وقد كان (الرسول) قد سئل عن شيء من مناسك الحج، سكت محمد فترة ثم نزل عليه الوحى فنفض عمر التراب عن رداء النبى ثم دلّ الرجل إلى مكان محمد الذى كان جالسا يتفكر (يتأمل). كان وجهه (وجه الرسول) مُحْمَراً وكانت أنفاسه عالية ثم اعترته حالة تشبه التشنج العصبى. ثم أفاق وسأل فى ذات اللحظة عن الرجل الذى طرح عليه السؤال (ديرمنجهيم. محمد، ص ٣٠ وما بعدها)(٦٥).

ومما يؤكد صحة الوحى الذى أنزل إليه ما ورد فى سورة (القيامة) الآيات من ١٦- ١٨. (فى قوله تعالى): ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾. ويقول تورأندريه فى هذه المناسبة: "إن كثيراً ممن أوحى إليهم قد لاحظوا أن أى رغبة أو تدخل شخصى سوف يؤثر سلباً على تدفق نهر الوحى. فلا يحرك به لسانه حتى لا يتدخل هو فى صياغة الكلمات التى سوف يأتى بها الوحى (الملك). عليه فقط أن يظل هادئاً وصامتاً فى انتظار ما ينطبق به الوحى. فلاشك أن كلمات الله لن تضيع وسوف تظل ثابتة فى ذهنه"(سورة (الأعلى آية ٥)(٦٦) (محمد، حياته وعقيدته، ص ٣٩ وما بعدها).

روت عائشة، زوجة محمد اللاحقة المحبوبة، "رأيت ذات مرة كيف نزل الوحى على رسول الله في يوم شديد البرودة. وبعد أن قضى الوحى كان العرق يتساقط من جبينه". وفى رواية أخرى سئل (محمد) ذات مرة: هل تحس بالوحى عند نزوله عليك؟ فأجاب: إنى أسمع ضوضاء (أصواتاً) وعندها أحس أن صاعقة قد أصابتنى ولم يأتنى الوحى مرة دون أن أحس وكأن روحى ستقبض. وفى رواية أخرى يذكر أن النبى قال: يأتينى الوحى على هيئتين :- يزورنى جبريل ويقرؤه علىّ، كما يتحدث رجل لرجل، إلا أن ما قاله لى يضيع، أو أنه يأتى ومعه أصوات تشبه صوت الجرس حتى ينتبه قلبى، فما يوحى إلى بهذه الطريقة لا يضيع (المرجع السابق، ص ٤٠).

ينتمى محمد إلى نوع من الأنبياء الذين يتمتعون بقوة سمعية خاصة. بمعنى أنه كان يسمع صوت (الوحى) فى الحالات سابقة الذكر دون أن يرى المصدر

(مصدر الصوت). ولعله لم ير هذا الشيء عظيم البنية (ملك الوحى) سوى مرتين فقط، مرة عند بدء الوحى، ومرة ثانية فى رحلة الإسراء، فى كلمات مقتضبة فى سورة الإسراء الآية الأولى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾.

لقد بالغت الروايات فى شأن هذه الرؤيا إلى حد كبير. وإنه ليصعب الوصول إلى معرفة ما رواه النبى على وجه الحقيقة من بين كل ما روى شفاهة حول هذا الأمر. لقد وقف البراق أمام عينيه الباطنتين (بصيرته) والبراق هو الصورة المرئية لروح النبوة. ولقد امتطى كل الأنبياء هذا البراق حينما ارتفعت به أرواحهم فوق العالم. كان يضع حافره على مدى البصر. يرى النبى نفسه ممتطياً البراق الذى يرتفع به ويصحبه (فى هذه الرحلة الملك ويصل بالبصر إلى القدس حيثاجتمع كل الأنبياء وفى وسطهم إبراهيم وموسى وعيسى ثم يصلى بهم محمد إماماً ثم يصعد على سلم من نور حتى يصل إلى عرش السماء.

تتضمن سورة النجم الآيات من ١- ١٨ ذكراً للغائبين (الرؤيتين) اللذين ذكرهما (محمد) مع ملك الوحى، (قال تعالى):﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾.

لقد كان عدد أتباع النبى يزداد فى صمت. وكان يلتقى بهم فى شعاب خارج مكة، ليقيموا الصلاة التى أوجبها جبريل[٦٧] على محمد. ولم يكن ممكنا أن يظل الدين الجديد لمدة زمنية طويلاً سراً، وكانت آنذاك مجاعة تعم مكة، وقد كان كثير ممن اتبع محمد من الفقراء الذين كان يحتقرهم أغنياء قريش، وكان محمد كثيراً ما يسمع الصوت الذى يطالبه بإلحاح أن يجهر بالدين و(فى قوله تعالى):﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ﴾. (سورة "المدثر" الآيات ١- ٢)[٦٨].



المترجم يستمع لدفاع المؤلف عن وجهة نظره حول كيفية معالجة ليسينج لبعض الشخصيات والأحداث فى التاريخ الإسلامى المسيحى اليهودى خاصة ما يتعلق بتصوير ليسينج للألوهية فى كتابه (ناتان الحكيم).

الفصل الرابع

حكمُ العالم وخالقه

تدور السور الأولى للوحى حول فكرة الحساب ورحمة الله الخالق. وتتمركز فيها فكرة العدالة الاجتماعية. إن السور الأولى التى تدور حول فكرة الألوهية تتمتع بأقوى درجات التأثير والإعجاز اللغوى. ساعة الحساب تدق، (قال تعالى): ﴿الْقَارِعَةُ(١)مَا الْقَارِعَةُ(٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ(٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ(٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ(٥) فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ(٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ(٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ(٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ(٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ(١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ(١١)﴾ (سورة قارعة).

وتعطينا سورة التكوير الآيات من ١- ١٤ فكرة عن القوة اللغوية وجمال النثر فى بدايات الوحى حسب ما جاء فى ترجمة م. كلارموت (M. Klamrot). فإن الآيات تقبحِّ فى مواضع معينة العادة الفظيعة للعرب الأوائل وهى دفن البنات غير المرغوب فيهن أحياءً، (يقول تعالى): ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ(١) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ(٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ(٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ(٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ(٥)وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ(٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ(٧) وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ(٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ(٩) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ(١٠) وَإِذَا السَّمَاء كُشِطَتْ(١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ(١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ(١٤)﴾.

جمع المال (الطمع)، والظلم والأنانية (عدم صلة الرحم) (كل هذه الأمور) تهوى بصاحبها فى النار، (يقول تعالى فى سورة الهُمَزة): ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ(١) الَّذِي جَمَعَ مَالا وَعَدَّدَهُ(٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ(٣) كَلا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ(٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ(٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ(٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ(٧) إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ(٨) فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ(٩)﴾. (سورة ١٠٤)

إن جامع المال ينكر الحساب ويكرم الأيتام (يأكل مالهم) ولا يحض أهله على إطعام المساكين (سورة "الماعون") يحب الإنسان جمع المال (سورة "التكاثر"). ويأكلون مال اليتيم (سورة "الفجر" آية ١٩). إلا أن الله قد وضع الميزان فى الكون لكى يحفظ اتزان السماوات والأرض ويعطى للإنسان مثالاً يحتذى به لكى يكون عدلاً فى كل شىء. أى أن يعمل على أن تسود العدالة، (قال تعالى فى

سورة الرحمن) ﴿وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ(٧) أَلا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ(٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ(٩)﴾.

بذلك تدق فكرة الخلق الأسماع. ولم تكن قصة الخلق من موضوعات السور الأولى (بدايات الوحى) الأهم من ذلك كان التأكيد على أن الله خالق كل شيء فى كل آن ومكان. (قال تعالى فى سورة عَبَسَ): ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ(٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبًّا(٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا(٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا(٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا(٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلا(٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا(٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا(٣١) مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ (٣٢)﴾.

لا يحتاج الإنسان سوى النظر إلى نفسه حتى يفهم عظمة الخالق القادر على إعادة الخلق مرة أخرى أى البعث، (قال تعالى فى سورة الطارق): ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ(٥) خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ(٦) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ(٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ(٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ(٩) فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ(١٠)﴾.

أما فى السور المتأخرة فنجد أن فكرة البعث تذكر داخل فكرة الخلق. فكما أن الإنسان يمر بمراحل تطور محددة تترتب إحداها على الأخرى، هكذا يتبع الخلق الأول الخلق الثانى. وكما يحيى الله الأرض الميتة بأن يخرج منها النبات عن طريق المطر، هكذا سوف يعيد الله بقدرته الأموات إلى الحياة، (قال تعالى فى سورة "الحج" الآيات ٥– ٧): ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ(٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ(٧)﴾.

فى الفترة المكية الثانية (السنة الخامسة والسادسة بعد بعثة محمد ﷺ) نجد العرض التالى الذى يتضمن قصة الخلق،(قال تعالى فى سورة "الأنبياء"٣٠– ٣٣): ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ(٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ(٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ(٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ(٣٣)﴾.

أما فى الفترة المكية الثالثة (من السنة السابعة بعد البعثة إلى الهجرة) فنجد لأول مرة وصفاً تفصيلياً لعمل استغرق ستة أيام (خلق السماوات والأرض) يقول الله تعالى فى سورة "فصلت" الآيات (٩- ١٢): ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ(٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ(١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ(١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(١٢)﴾.

(الأيام الأربعة التى ذكرت فى وسط السورة نضم اليومين اللذين سبق ذكرهم) وبتعير قوى يذكر ذلك فى سورة "يونس"[١٠] آية ٣ (قال تعالى): ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾.

ويذكر فى سورة "هود" الآية ٧ أن عرش الله كان على الماء أثناء خلق العالم فى ستة أيام لكى يراقب الإنسان وعمله. ولم يبتعد الله عن الإنسان بعد إتمامه للخلق العظيم كما كانت عقيدة الأولين فى الله، بل ظل فى العالم يديره ويحكمه كما كان يفعل من أول الخلق ومنذ استوائه على العرش (يقول تعالى) فى سورة "ق" الآية ١٥﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾. وفى الآية ٣٨ (يقول تعالى): ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾.

إن الله أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد (انظر سورة "ق" آية ٦٠). إن الله قريب إلى الإنسان من كل جانب. وليس الخلق مجرد عملية بعيدة حدثت فى الماضى وانفضت بل هى عملية مستمرة حاضرة تصدر عن الله إنه يخلق الأشياء فى كل لحظة من جديد، هكذا فإن فكرة الخلق ملازمة لفكرة البعث كما سبق أن ذكرنا. يهب الله الخلق وجوداً متجدداً كل لحظة (أى يبعثه) وبذلك ينبهنا مسبقاً إلى يوم البعث، وليست القوانين الطبيعية (سنن الكون) حسبما رأى علماء المسلمين لاحقاً سوى "عادة إلهية"[٦٩]. كل شىء فى الكون يتعلق بقدرة الله مباشرة. ولم يخلق الله السماوات والأرض عبثاً ولكن خلقها بالحق (انظر سورة "الدخان"

آية ٣٨) (قال تعالى): ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ(٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾.(٧٠)

تعطينا السورة رقم ٧٨ "النبا" ولأول مرة فى الوحى القرآنى مثالاً رائعاً لتداخل فكرتى الخلق والبعث عن طريق صور الجنة والنار (قال تعالى): ﴿عَمَّ يَتَسَاءلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ(٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ(٣) كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ(٤) ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا(١٦) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا(١٧) يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا(١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا(١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا(٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا(٢١) لِلْطَّاغِينَ مَآبًا(٢٢) لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا(٢٣) لاَّ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلاَ شَرَابًا(٢٤) إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا(٢٥) جَزَاء وِفَاقًا(٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَابًا(٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا(٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا(٢٩) فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا(٣٠) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا(٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا(٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا(٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا(٣٤) لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ كِذَّابًا(٣٥) جَزَاء مِّن رَّبِّكَ عَطَاء حِسَابًا(٣٦) رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرحْمَنِ لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا(٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا(٣٨) ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا(٣٩) إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا(٤٠)﴾.

إن التفاصيل المتفرقة فى ثنايا آيات القرآن عن يوم الحساب والنار والجنة يمكن أن تكوّن لوحة فنية كبيرة لعلها أثرت على دانتى (Dante) فيما ذكره فى "الكوميدية الإلهية". ولقد أعطانا "تور آندرية" صورة مجملة مؤثرة لهذا التصور (حيث يقول): "كارثة طبيعية فظيعة أعطاها محمد أسماء مختلفة وغامضة (مثل) رعد، فزع، ضوضاء شديدة. سوف تسبق يوم الحساب، الذى يبدأ فى ذات اللحظة التى ينفخ فيها الأبواق فتهرع الناس إلى الحَكَم (الله تعالى)، أو هو (تعالى) يأمر بالنفخة الأولى التى يتبعها زلزال عنيف يزلزل الأرض فتشقق الأرض وتخرج ما كان مختفيا فى باطنها، وتسيَّر الجبال ويختلط بعضها بالبعض وكأنها سراب، ثم تصبح تراباً، وتهتز السماء وتفتح وتصبح أبواباً أو تطوى كطى السجل للكتب"،

وتكدر الشمس وينشق القمر فيظلم وتنطفئ النجوم أو تتساقط من السماء. وبعد النفخة الأولى يصعق "من فى السماوات والأرض إلا من شاء"، وبعد نفخة أخرى "فإذاهم قيام ينظرون". وفى ذات اللحظة التى يبعث فيها الناس وتطوى فيها السماء يظهر عرش الله الذى يحمله ثمانية ملائكة ويأتى الملائكة "صفا صفاً" وتلتف الناس حول العرش. يقف الصالحون على الجانب الأيمن ويقف المفسدون على الجانب الأيسر. وفى لحظات صمت رهيب يبدأ الحساب على أساس ما أحصى "فى كتاب مبين". ينشر الله من رحمته على الصالحين، أما المفسدون فيحاسبون حساباً عسيراً، ويظهر ذلك مسبقاً على وجوهم القاتمة المغبرة، بينما تضيء وجوه الصالحين (المقسطين) بنور السعادة بلقاء ربهم. لا يمكن لأى إنسان أن ينكر ذنوبه لأن أعضاء أجسام الظالمين، أيديهم وأرجلهم وألسنتهم، سوف تشهد عليهم إضافة إلى ما هو مكتوب فى كتابهم. إلا أن الله (تعالى) يحرص على أن يظلم على ألا يظلم منهم أحداً. وينادى على الأنبياء ليشهدوا أنهم قد أنذروا أقوامهم. ويحاول المفسدون عبثا إلقاء اللوم على الجان والشياطين الذين أضلوهم ودعوهم لعبادة الأصنام، إلا أن هؤلاء (الجن والشياطين) يتبرءون من أعوانهم ويقولون لم يكن منا إلا أن دعوناكم فاستجبتم. وفى يأس يبحث الظالمون عمن ينصرهم أو يحمل عنهم أوزارهم. إلا أن كل نفس بما كسبت رهينة "ولا تزروا وازرة وزر أخرى". (تور أندريه، محمد، حياته وعقيدته، ص ٤٤ وما بعدهما).

وبعد أن يصدر الحكم تأتى الملائكة وتكبل المفسدين بسلاسل ويسحبونهم (إلى النار) تحت وابل من الضرب. هؤلاء الملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما آمرهم، تأتمر ملائكة العذاب بأمر رئيسهم ملك النار (العذاب) فيلقون بمن حق عليهم العذاب فى النار، ويسقونهم بماء كالمهل، ويسحقون عظامهم بقطع من الحديد ويلبسون لباساً من نار. (المرجع السابق ص ٤٥ وما بعدها).

أما الجنة فهى مكان ممتع تجرى فيه الأنهار وتلقى عليه الأشجار الوارفة بظلالها، يتكيء فيها الناجون على الأرائك "ويلبسون فيها ثياباً خضراً من سندس وإستبرق". ودانية عليهم ظلال أشجار الفاكهة النضرة ويأكلون فيها من الرمان والموز (؟) والأعناب والتمور "وذللت قطوفها تذليلاً" لمن أراد منهم أن يأكل منها، إضافة إلى كل أنواع اللحوم وكل ما يتمنون. و﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا

رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ (الإنسان (٧٦)/١٩). ويشربون فيها شراباً طهوراً لا يصيبهم بأذى ولا يذهب عقولهم فيفعلون ما هو مكروه، ولا يسبب لهم آلاما فى رؤوسهم (صداعاً) أو يسكرهم. ولهم فيها الحور العين يتخذونهن أزواجاً أبكاراً أطهاراً كما خلقهن الله"[٧١].

وتتضمن الروايات الإسلامية الأولى رأياً قاطعاً بأن الحور العين فى الجنة كن نساءً فى الأرض، رغم أن القرآن لا يتضمن أى شيء يشير إلى ذلك. فتذكر بعض الروايات أن النبى ذاته قال فيهن: "أنهن كن السيدات المؤمنات (فى الحياة الدنيا) حتى لو كن قد توفين عجائز، شعورهن بيضاء وعيونهن ذابلة. فإن الله يبعثهن أبكاراً (فى أحسن مراحل أعمارهن). ولقد كان من الأمور البدهية عن محمد (ﷺ) أن النساء والأطفال المؤمنين لهم نصيب من السعادة فى الجنة، وقد ورد ما يؤكد ذلك (فى أحاديثه الشريفة) (المرجع السابق، ص ٤٦).

لقد أتهم البعض التصوير القرآنى للجنة بأن جعل منها حانة قد حُوّرت إلى مكان بجد الناس فيه السعادة الأبدية. إن هذا التصوير (الوصف) القرآنى للجنة يذكر فى بعض مواضعه بحانات الخمر عند الشعراء القدماء (ج. يعقوب، فى ر. بارت، ترجمة معانى القرآن ص ٦٥).

وإذا أراد أحدهم أن يكون متعاطفاً مع القرآن فإنه يقول إن الحياة القاسية للبدو والصحراء وراء هذا التصور.[٧٢] وبصفة عامة برفض بعض الناس الفهم الصحيح للأبدية (فى الآخرة) وعدم القدرة على الفهم الروحى للأشياء الروحانية. أما الاعتذار (التفسير) الذى يرى فى هذا التصور مجرد تصور رمزى لا يقوى على إبطال هذه الشبهة. لأن هذا الوصف القرآنى لا يمكن أن يكون تصويراً رمزياً على الإطلاق.

هنا نلاحظ وجود مانع ثقافى، لا يزال يفعل أثره حتى الآن، ولا يستطيع أحد أن يوقف ذلك (هذا التأثير) سوى عقلية مستقلة تماماً من يعمل فى مجال الحس والحواس. مثل يوهان فولفجانج جوته (Johann Wolfgang Goethe). لقد خصص جوته كتاباً هو (الديوان الغربى الشرقى) للوصف القرآنى للجنة وحسبما جاء فى قصيدته الشعرية "فورشماك" (العينية التجريبية) التى ذكرها فى "خلدنامه" (كتاب الخلد) أى "كتاب الجنة" ذكر النبى ما يقوى به إيماننا، وهو مايلى[٧٣]:

إلى الأماكن الأزلية

مثال الفتوة، ليعيد لكل شيء فتوته

تحلق هنا، وتربط دون أطراف

حول عنقيِ أحب الأربطة إلى

فى فجرى، فى قلبى أمسك

الكائن السماوى

ولا أريد أن أعلم غير ذلك

وأومن الآن بشدة بأن هناك جنة

لأننى أريد وإلى الآبد أن أدخلها بإخلاص

إن الديوان الغربى الشرقى للشاعر جوته قد أضاءه الوصف القرآنى للجنة. وفى اللقاء المنشود بين الرجل والمرأة يظهر كالحقيقة كائنان سماويان، (هما) أنيما وأينموس(Anima umd Animus)[٧٤]. وحسبما نجده فى التحليل النفسى عن الخلفية الروحية لباطن الذات، حيث ترسم فيها ألوان الجنة، التى نشارك فيها نحن، هنا والآن أثناء لقاء الحب حيث نتذكر ذلك بقوة.

المسلم الحقيقى يذكر الجنة (بصفها) وكأنه كان موجوداً فيها. وهكذا يبدأ جوته قصيدته "فورشماك" (العينة التجريبية) أنيما وأنيموس يرمزان إلى الرجل والمرأة فى الصورة الباطنة وقوة التصور عند الرجل والمرأة فى داخلنا (تلك هى) الجنة فى داخلنا والتى تصبح من خلال الحب "أنا" "وأنت" حقيقيين وبالتالى إلى تحقيق الذات الحقيقى إلى الإنسان المكتمل (الكامل).

بعض الشواهد تؤيد القول بأن أبكار الجنة، أى الحور العين، يتعلق بما ذكر فى الأدب الإيرانى عن "دائينا" (Daena). وهذا ما عبر عنه ج. ڤيدينجرين (G. Widengren) بقوله: الشخصية الروحانية التى ظلت فى السماء، والتى يتألف باجتماعها مع روح الإنسان كل "أنا" الشخص (وعيه). فيها تلتقى الروح بعد الموت مع ذاتها، وتظهر فى هيئة فتاة جميلة تتحد معها الروح، التى تظهر فى صورة

"العريس" إلى جوار عروسه. (ج. فيدينجرين، عالم الروحانيات الإيرانية، ص ١٩٦ وما بعدها)[٧٥].

ويعرف هذا التصور فى الغنوصية بـــ "الهبة المقدسة فى التزاوج" (Sakrament des Brautgemachs). وفى مقابل شخصية مثالية والتى ينقصها الحب الجنسى الذى يؤدى إلى الكمال، يقول جوته فى كتاب سُلَيكه:

يمكن أن يكون ذلك صحيحاً

هكذا يقال

لكننى على طريق آخر

كل سعادة الدنيا مجتمعة

أجدها فقط فى سليكه

كلما توارت فى اتجاهى

أحسست بقيمة ذاتى

ولو أنها ابتعدت عنى

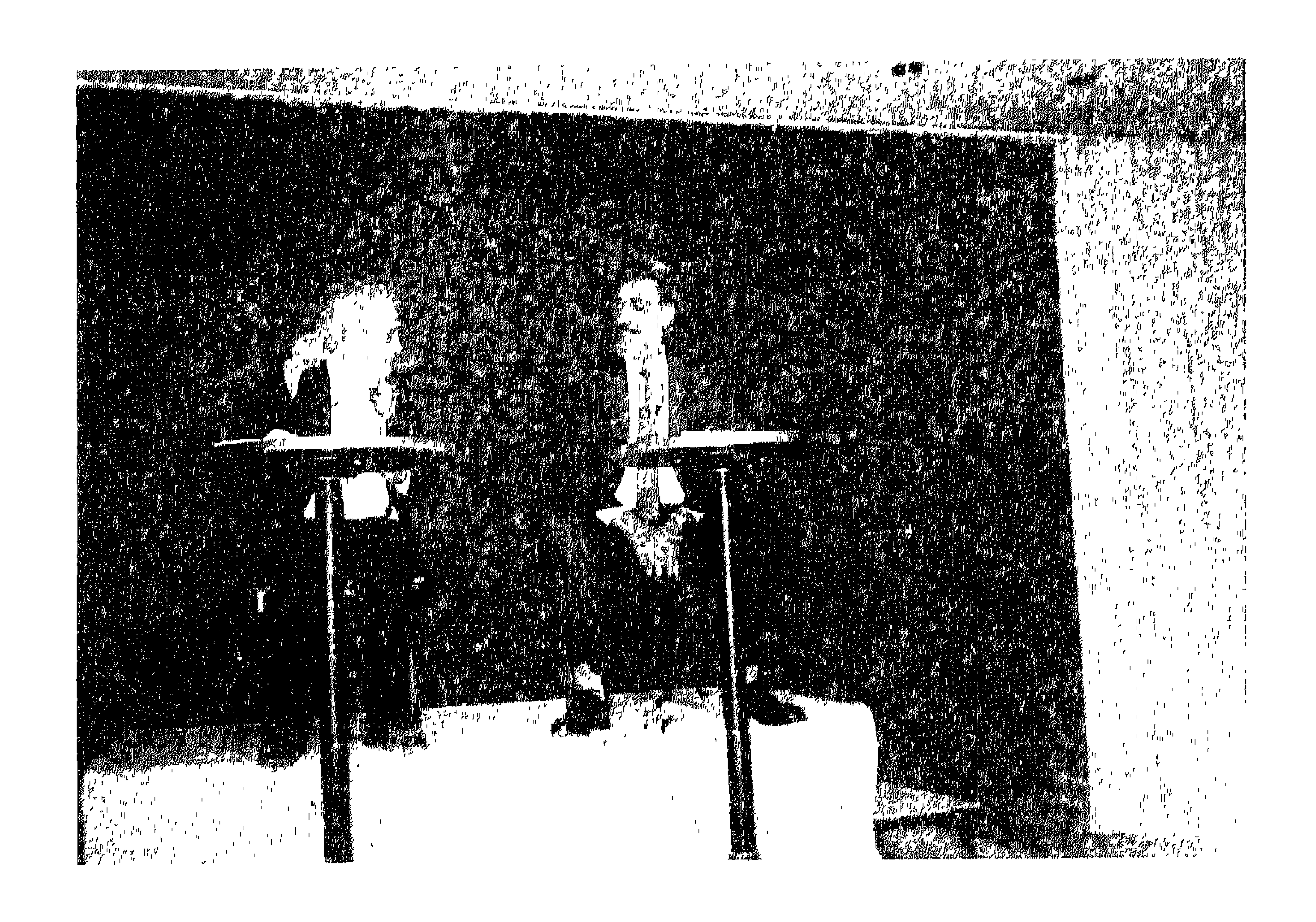
فى ذات اللحظة فقدت نفسى

هنا تبدأ الجنة. يأتينا النور من الآيات القرآنية فيدخل الروح ويطلق ما فى أعماقها من رغبة فى إحدى سيدات أو رجال الجنة. أما إذا كان البعض يشبّه الجنة بالحانة فلا يكون ذلك سوى بالمعنى المقصود فى "كتاب الحانة" (das Schenkenbuch) فى ديوانه:

وهكذا منك أخيراً توقعت

فى كل شىء الله رأيت

لقد كشف القرآن عن بُعد للجنّة لم يره الرهبان والقساوسة والفلاسفة واللاهوتيون الذين أثروا فى دائرتى الثقافية. (هذا البعد يتمثل فى فهم) اجتماع المحبين على أنه صورة الأبدية (السعادة الأبدية).



المؤلف يرد على تعقيب المترجم أثناء الحوار الذى دار بينهما حول دور كل رسالة سماوية وذلك بعد انتهاء كل منهما من عرض وجهة نظره.

الفصل الخامس

الرسل

يؤكد القرآن بوضوح أن الله قد بعث لكل أمة رسولاً فى وقت معين وأن الله لا يهلك قوماً قبل أن يبعث إليهم نذيراً (قال تعالى) سورة فاطر (٣٥/ ٢٤). ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾. كما قال تعالى فى سورة الإسراء (٧/ ١٥ وما بعدهما). ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً(١٥) وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا(١٦)﴾. كما قال تعالى فى سورة إبراهيم (١٤/ ٤): ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾. وقال تعالى فى سورة الأنبياء (٢١/٢٥): ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾.

إن نظرية الرسل (النبوة) التى جاء بها محمد، بصفة خاصة فى الفترة المكية الثانية، تعد بمثابة تطور هام لرسالته النبوية وأن تركيزه على الآخرة فى خطبه والتى أكد فيها قرب يوم الحساب كان ينقصها ذكر تاريخ النبوات[٧٦] فى الفترة ما بين خلق العالم ونهايته. ولعل تصور قرب يوم الحساب جعل ذكر هذا التاريخ غير ذى جدوى وربما كان السبب فى ذلك أن الجهد الذى كان يبذل فى البداية من أجل توضيح مفهومى الخالق والحاكم قد تناقص مع مرور الوقت.

إن الحاجة إلى قصص الأنبياء (تاريخ النبوات) كانت تقتضيها ضرورة إثبات (بيان) موقع النبى محمد (ﷺ) بين الأنبياء (وإثبات الحاجة إلى رسالة. إن ذكر قصص الأنبياء فى القرآن الكريم يهدف دون أدنى شك إلى إظهار عقيدة توحيد خالصة والتى حددها محمد فى خطبة الأول بأقصى درجات الإيضاح. لقد جاء فى رسالة أرسلها عروة بن الزبير إلى عبد الملك (٦٨٥ م- ٧٠٥م/ ٦٣هـ- ٨٣هـ) ما يلى: "عندما دعا رسول الله قومه إلى اتباع الهدى الذى أوحى إليه من ربه لم يبتعد (قومه) عنه فى البداية وكادوا يتبعونه وظلوا على تلك الحال حتى بدأ (محمد) الحديث عن الأصنام (ر. بارت، محمد والقرآن، ص ٩٢).

لم تتضمنالسور الأولى من القرآن (حسب تاريخ النزول) عداءً واضحاً

للأصنام، بل لعلها كانت تضع الأصنام فقط فى درجة الأبناء والبنات لله (تعالى الله علواً كثيراً)، وفى هذا الصدد تخبرنا بعض الروايات أن محمداً (ﷺ) أضاف الدعاء القديم الذى كان يذكره القرشيون أثناء طوافهم بالكعبة إلى ما ذكر فى سورة (النجم) الآيات ١٩ وما بعدها[٧٧]. (قال تعالى): ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى(١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى(٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى(٢١)﴾.

هكذا يمكننا القول بأن محمداً أراد أن يبقى على المكانة الخاصة لبنات الله وشفعائه ربما لكى يبنى على هذا الأساس نوعاً من الاتفاق مع وجهاء قريش، ثم رفض محمد فيما بعد هذا الحل الوسط بشكل قاطع جاءت الصياغة الأخيرة للآيات ١٩– ٢٥ من سورة (النجم) كما يلى:

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى(١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى(٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى(٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى(٢٢) إِنْ هِيَ إِلا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى(٢٣) أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى(٢٤) فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى(٢٥)﴾.

لقد أصبح واضحاً لمحمد، على ما يبدو فى المرحلة الحرجة أن أى تقديم أو تأخير لهذه الآلهة (الأصنام) بالنسبة إلى الإله الحقيقى سوف يؤدى فى ذات الوقت إلى إبعاد الله عن التفاعل المباشر مع الواقع المعاش فى هذا العالم. لقد أصبح الشرك بالله– حسب المصطلح القرآنى– ذنباً عظيماً دون شك.

(قال تعالى): ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء﴾. (النساء (٤)/ ١١٦).

يبين المنقذ محمد (ﷺ) أن إشراك الأصنام فى العبادة يخرج الإنسان من العبودية لله، عبادة المخلوق للخالق وأن الإنسان يشوه علاقته الدينية مع الله (عبادته) عن طريق رغباته وغرائزه التى تمثلها تلك الأصنام التى يقدسها. ويوم القيامة سوف تستطيع تلك الأصنام الكلام (سوف ينطقها الله) وتتنكر لمن كانوا يعبدونها وتقول: إنهم لم يعبدوها، بل كانوا يعبدون نزواتهم. وحسب تعبير فويرباخ[٧٨] ماهى (الأصنام) إلا إسقاط الإنسان لرغباته (على هذه التماثيل) ومن ثم عبادتها.

شيئاً فشيئاً تشق فكرة أن الناس جميعاً كانوا أمة واحدة (سورة يونس (١٠)/ ١٩) طريقها فى فكر محمد (ﷺ). كان الناس على دين أصيل لا يعبدون سوى إلها حقيقياً واحداً. إلا أنهم تفرقوا بسبب اتجاههم إلى الشرك فأصبحوا شعوباً مختلفة، ورفع كل منهم اهتماماته الحيوية الخاصة عن طريق آلهتهم (متمثلة فى الأصنام) إلى السماء، إنهم آلهة الهوى، حسب تعبير هومر(٧٩)، الذين حلّت عبادتهم محل الدين الأصلى. إلا أن الله يرسل لكل أمة رسولاً فى فترات زمنية حساسة وهامة الإله يحارب الشرك ويدعو إلى عبادة الإله الحقيقى الواحد.

لابد للمرء أن يتساءل عما إذا كان محمد قد أخذ تصوره للرسل عن الروايات الغنوصية التى كانت منتشر آنذاك فى مكة. إننا نجد روايات ذات بنية شبيهة فى الغنوصية السيتيانية حول "محنة" آدم، وذلك ضمن ما عرف من محتويات المكتبة الغنوصية التى اكتشفت عام ١٩٤٥/ ١٩٤٦ فى نجع حمادى.

إن الأنبياء هم حملة العلم الصحيح. وأنهم يُنقَذون مع أتباعهم من أية محنة (كارثة). وهذا تصور يرتبط بفكرة الاصطفاء (النبوة). فى كل جيل ولكل أمة يُبعث رسول. ولأن مثل هذه التصورات كانت معروفة فى مكة قبل "محمد" فإن ذلك سوف يلقى الضوء على مواضع (آيات قرآنية) كثيراً ما وصفت ببساطة بأنها مجرد خطابة.

جاء فى سورة (فاطر) ٣٥/ ٤٢: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ﴾. إذاً لقد توقع الناس ظهور رسول عربى أو أن هذا الاحتمال كان قائماً على أقل تقدير. وفى ذات الوقت فإن القرآن يخبر بأنه لم يظهر فى العرب نذير قبل محمد (ﷺ) (سورة السجدة ٣٢/ ٣٠)(٨٠). لذلك كان محمد مقتنعاً تماماً بأنه هو الرسول العربى، وأن العلم الذى حمله كل الرسل من قبل إلى أقوامهم يتمثل فى تأكيد وحدانية الله ورفض الشرك. من جانب، وفى علم الله الذى يمكن للإنسان تحصيله باتباع الوحى من جانب آخر. ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾. (الملك ٦٧/ ٢٦)(٨١).

إن قصص العقاب الذى نبهنا إليها فى باب سابق نجد لها سنداً فى هذا

السياق. تماماً حسبما لاحظ ر. بارت أن هذه الأحداث تسير على نمط واحد. فكلما أتى رسول فإنه يواجه كفاراً، وهؤلاء الكفار يتهمونه بالخداع، والسحر والتجرؤ والكذب. ويقف ذوو الجاه والسلطة ضده. فقط عدد قليل من الناس خاصة من الطبقة الفقيرة هم الذين يتبعونه. ثم يأتى العقاب (من الله) ولا ينجو منه سوى الرسول ومن اتبعه من الناس.

إن ر. بارت محق بشكل عام فيما ذهب إليه من أن قصص العقاب التى حدثت خلال التاريخ وارتبطت عادة بوجود الرسل لا يمكن أن تتوافق بسهولة مع ما ذكر عن يوم الحساب الأخير بسهولة. فكيف يمكن أن يبعث البشر جميعاً يوم القيامة ليحاسبوا، بينما بعض الشعوب الغابرة تنال عقابها الآن فى هذه الدنيا؟ (محمد والقرآن، ص ٨٧).

وحسبما يرى بارت فإن محمداً (ﷺ) كان عنده تصوران متكاملان إلا أن محمداً وضع أحدهما فوق الآخر قسراً لكى يحافظ عليهما (المرجع السابق، ص ٨٩). ورغم ذلك فإن تصور يوم الحساب العام (يوم القيامة) يتراجع بالضرورة إلى المرتبة الثانية خلف العقاب الدنيوى (المرجع السابق، ص ٨٨).

يبدو أن محمداً كان يتوقع أن ينزل مثل هذا العقاب على أهل مكة (سورة "فصلت" ٤١/ ١٢)[٨٢]، وكذلك بعد الهجرة فى (سورة ٤٧/ ١٤)[٨٣]. يكاد المرء أن يشعر بوجود روتين مذهبى وراء التصور الموجود فى سورة "الإسراء" آية ٥٨ والتى جاء فيها: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

تأتى قصص العقاب غالباً فى هيئة سلسلة، وهذه السلسلة تبدأ كثيراً بقصة قوم نوح (فى السور٥٤/ ٩- ١٦، ٣٧/ ٧٥- ٨٢، ٧١/ ٢٨، ٢٦/ ١٠٥- ١٢٢، ٢٣/ ٢٣- ٣٠، ٢١/ ٧٦ وما بعدها ٢٥/ ٣٧، ١١/ ٢٥- ٤٩، ٢٩/ ١٤ وما بعدها، ١٠/ ٧١- ٧٣، ٧/ ٥٩- ٦٤). ثم تأتى بعد ذلك قصة قوم عاد ورسولهم هود، ثم ثمود ورسولهم صالح، ثم لوط ومدينتى سودوم، جومورها[٨٤]، ثم مدين ورسولهم شعيب، ثم قصة موسى والإسرائيليين ومشكلاتهم مع فرعون وقومه، وأخيراً فى مواضع مختلفة، قصة إبراهيم وقومه عبدة الأصنام.

يعتبر قوم عاد وهم قبيلة عربية قديمة كانت تسكن فى شمال مكة، جاءوا وابعد قوم نوح حسب ما ورد فى القرآن، وكانوا كما جاء فى بعض الروايات، طوال القامة يبلغ طول الواحد منهم مائة ذراع[٨٥] وكانوا من المتكبرين المتغطرسين. وكانوا يقولون: من أقوى منا؟ وكانوا يخضعون لحاكم طاغية، كما يبنون على الجبال بيوتاً عظيمة منيعة يظنون أنها تمنع الموت عنهم. لذلك عاتبهم رسولهم هود ودعاهم إلى عبادة الله الواحد. إلا أنهم لم يطيعوه ولم يصدقوا ما أنذرهم به من عقاب. وعندما رأوا سحاباً كثيفاً آتياً إليهم ظنوا أنه سيمطرهم. إلا أن الله استبدل هذا السحاب بريح صرصر عاتية استمرت سبع ليال وثمانية أيام ودون انقطاع حتى ماتوا جميعا فى بيوتهم كأنهم أعجاز نخل خاوية[٨٦]. ثم أنجى هوداً ومن اتبعوه (انظر السور ٨٩/ ٦- ٨، ٦٩/ ٤- ٨، ٥١/ ٤١ وما بعدها، ٥٤/ ١٨- ٢١، ٢٦/ ١٢٣- ١٤٠، ٢٣/ ٣١- ٤١، ٤١/ ١٣- ١٦، ١١/ ٥٠- ٦٠، ٧/ ٦٥- ٧٢، ٤٦/ ٢١- ٢٦).

وكذلك قوم ثمود، وهم قبيلة عربية قديمة كانت تقطن فى الشمال من مكة. كانوا خلفاً لقوم عاد، وكانوا يبنون على الأرض قصورا ويحفرون فى الجبال بيوتاً. وقد دعاهم رسول الله إليهم صالح ألا يعبدوا إلا الله الواحد وذكرهم بما أنزل الله إليهم من آية وهى الناقة. كان عليهم أن يتركوها ترعى فى أرض الله بحرية كما تشاء، ويسقونها الماء فى أيام أعيادهم. إلا أنهم بدلاً عن ذلك عقروها وسخروا من صالح وقالوا له آتنا ما أنذرتنا به. وكان بعضهم يدبر لقتل صالح ومن اتبعوه، إلا أن الله أنجاهم وأرسل إليهم زلزالاً شديداً يميتهم فى بيوتهم (انظر السور: ٩١/ ١١- ١٥، ٨٩/ ٩، ٦٩/٤ وما بعدها، ٥١/ ٤٣- ٤٥، ٥٤/ ٢٣- ٣١، ٢٦/ ١٤١- ١٥٩، ٢٧/ ٤٥- ٥٣، ٤١/ ١٣، ١٧ وما بعدها، ١٧/ ٥٩، ١١/ ٦١- ٦٨، ٧/ ٧٣- ٧٩، ١٥/ ٨٠- ٨٤).

ويمثل إهلاك هاتين القبيلتين العربيتين القديمتين آنذاك إنذاراً لأهل مكة حينما يقول النبى (قال تعالى): ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾. (فصلت ٤١/ ١٣)[٨٧].

وبخلاف ما روى فى الكتاب المقدس (العهد القديم) فإن لوطاً يذكر (فى

القرآن الكريم) على أنه نبى (نذير) ولم تذكر أسماء المدينتين سودوم وجومورها. ويقول لوط مخاطباً قومه (قال تعالى):

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢)﴾. و ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ(١٦٦)﴾. (انظر سورة "الشعراء" ٢٦/ ١٦٠ وما بعدهما). ثم يتهم لوط قومه بأنهم يقطعون السبيل على الغرباء ويفعلون فيهم الفاحشة. (سورة العنكبوت ٢٩/ ٢٩)[٨٨]. فيردون عليه بتهديده بأن يطردوه وأهله من القرية. وعندما جاءت ملائكة الله إلى لوط، طلب منه قومه (أهل سودوم) وهم سكارى أن يسلمهم ضيوفه ليفعلوا فيهم الفاحشة (قال تعالى): ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ(٧٣)فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ(٧٤)﴾ (سورة الحجر (١٥)/ ٧٣ وما بعدها). وينجو لوط وعائلته باستثناء زوجته، التى لم يُذكر شىء عن ذنبها (فى القران الكريم).

وحسب بعض القصص اليهودى (هجادا) فإن امرأة لوط قد اقترضت من إحدى جاراتها ملحاً لتجعله علامة على وجود الضيوف فى بيتها فيكون دليلاً لقومها (ليأتوا إلى البيت).

وعلى خلاف ما روى فى الكتاب المقدس عن لوط فإن القرآن الكريم لا يرمى بظلال على شخصية لوط (أى لا يذكره بسوء) (انظر الكتاب الأول لموسى، الإصحاح ١٣). وما ورد فى كتاب موسى١ الإصحاح ١٩/ ٣٠- ٣٨ من أن بنات لوط اللاتى لم ينجبن أطفالاً قد استدرجناه إلى أن يزنى فيهن بعد أن أسكروه بالخمر بهدف إنقاذ العائلة من الانقراض، وهذا ما يعتبره المسلمون إدعاءً شيطانياً ورواية كاذبةً، وقد بين القرآن أنها مجرد تحريف (افتراء) (انظر صدر الدين: القرآن ص ٩٦) وينبغى الإشارة. إلى أن العهد الجديد لم يذكر لوطاً بسوء مطلقاً ويشهد بذلك ما جاء فى الرسالة ٢ لبيتروس (بطرس) الإصحاح٢/ ٧ وما بعدهما. (المصدر السابق). إن الله قد أنجى لوطاً العادل الذى كان يتألم لما حدث لقومه المنافقين المذنبين، لأن الإنسان العادل (لوط) كان يتألم لما يراه ويسمعه من أعمال قومه التى لم تكن تخضع لقانون معين، وكانت روحه العادلة تتألم يوماً بعد يوم طوال وجوده بينهم. وفى الواقع فإن الخطاب الثانى لبيتروس يسير فى اتجاه رواية

وتفسير هذه المادة الموجودة فى الكتاب المقدس والتى وصلت، عبر الهجادا وآباء الكنيسة، إلى كمالها فى القرآن (الكريم) (انظر السور ٥١/ ٣١- ٣٧، ٥٤/ ٣٣- ٣٩، ٣٧/ ١٣٣- ١٣٨، ٢٦/ ١٦٠- ١٧٥، ١٥/ ٥٧- ٧٧، ٢١/ ٧٤ وما بعدها، ٢٥/ ٤٠/ ٢٧/ ٥٤- ٥٨، ١١/ ٧٧- ٨٣، ٢٩/ ٢٨- ٣٥، ٧/ ٨٠- ٨٤).

يسمى شعيب رسول الله إلى أهل مدين فى الكتاب المقدس "يثرو"، ويسمى أيضاً "ريجيل"، ويعتبر من القساوسة (فى الكتاب الثانى لموسى الإصحاح ٢/ ١٥/ ٣/ ١) وهو حمو موسى (والد زوجته). وحسبما تروى الهجادا اليهودية[٨٩] فقد أنكر شعيب الأصنام ورفض عبادتها وقد أعاد إلى قومه كل ماكان لديه من الأدوات التى كانت تستخدم فى شعائر العبادة، ونتيجة لذلك فقد اعتزلوه فلا يساعده أحد منهم فى أى عمل ولا يرعى له أحدهم غنمه. لذلك كان على بناته أن يرعوا أنعامه. وقد التقى موسى ببنات شعيب عند بئر للماء وساعدهم فى سقى أغنامهم. ولعل اسم شعيب له تعلق بالمكان الذى كان يعيش فيه إبراهيم (عليه السلام) واسمه بيرشيبا ففهمه محمد (ﷺ) على أنه بئر شعيب (انظر هـ. شباير، قصص الكتاب المقدس فى القرآن، ص ٢٥٣).

ولعل لروايات الهجادا أثرا غير مباشر فى قصص القرآن. فأهل مدين يطلبون من شعيب العودة إلى دين قومه. (قال تعالى): ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ(٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللّهُ مِنْهَا(٨٩) ﴾. (سورة الأعراف ٧/ ٨٨- ٨٩). ويتهم شعيب أهل قومه بأنهم يخسرون الكيل والميزان وأنهم يظلمون الناس. ويقابل أهل مدين شعيباً بسخرية فيقولون له أتطلب منا أن نترك ما كان يعبد أوباؤنا وألاننتصرف فى أموالنا كما نشاء رغم أنك توصف بالرشد والحكم (بقى الآيات الكريمة قال تعالى): ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ(٨٥)﴾. (وفى الآية ٨٧) (قال تعالى): ﴿قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾. (السورة "هود" الآيات ٨٧، ٩١، ٩٤). فجاء زلزال فأهلك أهل هذه المدينة (سورة ٧ "الأعراف" الآية ٩١)[٩٠].

وفى السور التى نزلت فى أول الوحى كان أهل مدين يسمون أصحاب الأيكة (سورة ٥٠/ ١٤)[٩١] ولعل ذلك يتعلق بشجرة الطرفاء المنسوبة لإبراهيم (عليه السلام) فى بئر شعيب أو بالبلدة التى كان يسكنها إبراهيم (عليه السلام) وتسمى "هاين مامرة" (انظر هـ. شباير، مرجع سابق ص ٢٥٣، السورة ٢٦/ ١٧٦- ١٩١، ١٥/ ٧٨ وما بعدهما ١١/ ٨٤- ٩٥، ٢٩/ ٣٦ وما بعدهما، ٧/ ٨٥- ٩٣).

لعل محمداً كان يتذكر قصص العقاب السابقة عندما كان يطلب من أهل مكة أن يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة المجرمين. (سورة ٢٧/ ٦٩)[٩٢]. وما جاء فى السورة ٣٢ (السجدة) الآية ٢٦ (قال تعالى): ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾. (مثل ذلك فى سورة غافر آية ٢١، سورة محمد آية ١٠). وعلى آية حال فإن المبدأ الأساسى السائد هو (فى قوله تعالى):﴿كُلَّ مَا جَاء أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ... ﴾. (سورة (المؤمنون) الآية رقم ٤٤ وما بعدها.

أما الروايات الواردة عن موسى (عليه السلام) فى القرآن الكريم فلا يمكن أن تذكرها هنا بالتفصيل بسبب طولها، وهى تتفق فى أساسياتها مع روايات الكتاب المقدس إلا أنه توجد خصوصيات ونبرات (قرآنية) تستحق أن يشار إليها. فمثلاً يؤمن المصريون بأن الله لم يبعث لهم رسولاً من بعد موت يوسف (عليه السلام). وفى قصة الطفولة[٩٣] يذكر أن امرأة فرعون هى التى أخذت (تبنت) الطفل الملقى (فى اليم).

ويؤكد القرآن على أن عدو فرعون موسى(عليه السلام) قد نشأ وتربى فى بيته، حيث اكتملت موهبته فى العلم والحكمة. ففى سورة (طه) الآية ٣٧ وما بعدها (قال تعالى): ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى(٣٧)إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى(٣٧)أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي(٣٩)﴾.

ويشعر موسى بالندم لقتله المصرى ويغفر الله له. ويتهمه مصرى آخر بأنه يريد أن يكون جباراً فى الأرض وليس رسولاً للسلام[٩٤].

وبعد أن قضى موسى مدة خدمته عند شعيب فى مدين عاد مع أسرته إلى مصر وأثناء ذلك رأى ناراً على جبل سيناء فناداه الله من الجانب الأيمن من الوادى من خلال الشجرة. (وقال تعالى): ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى[١١]إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى[١٢]وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى[١٣]إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي[١٤]إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى[١٥]﴾. (انظر سورة ٢٠ "طه" من الأية ١١- ١٥). (قال تعالى): ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ...﴾ (سورة ١٤ إبراهيم الآية رقم ٥).

سوف يصبح هارون وزيراً لموسى ويذهب معه إلى فرعون الطاغية الذى يحكم شعباً ضالاً. فقط زوجة فرعون هى التى تؤمن بالله. مستشارو فرعون يعتبرون موسى ساحراً عليماً، وينبغى عليه أن يقف أمام كبار السحرة فى مصر، إلا أن عصا موسى التى تحولت إلى ثعبان مبين تلقف ما صنعوا من عصى وحبال، ثم يؤمن هؤلاء السحرة بالله ولا يثنيهم عن ذلك وعيد فرعون لهم، (قال تعالى):

﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ (سورة طه آية ٧١)[٩٥]. ثم يتشاور فرعون مع مستشاريه من جديد، إلا أن أحد أفراد عائلته يؤمن بالله ويقول: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ[٣٠] مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ[٣١]﴾ (سورة (غافر) آية ٣٠ وما بعدها).

إلا أن فرعون يطلب من وزيره هامان أن يوقد له على الطين ليجعل له صرحاً ﴿لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾. (سورة "القصص" آية ٣٨).

تبدو (هذه القصص) وكأنها بنية سريالية عظيمة عندما تأتى قصة بناء الصرح فى الكتاب الأول لموسى الإصحاح ١١، وكذلك عدو اليهود هامان فى كتاب "ايستر"[٩٦] مع صورة فرعون كتعبير عن التكبر والثقة المفرطة فى النفس. وقد وصف فرعون أيضاً بأنه ذو الأوتاد (انظر سورة ٣٨ "ص" الآية ١٢)، وسورة ٨٩ "الفجر" الآية ١٠). ولعل هذا الوصف مرتبط ببنائه الأهرامات.

أمر الله موسى وقومه أن يجعلوا فى بيوتهم مكاناً للصلاة (انظر سورة "يونس" الآية ٨٧). وكان ذلك حينما كان هو (موسى؟) يرى أنه سيد المصريين (الذين آمنوا معه) بناءً على تسع آيات (معجزات). أما الآية (العلامة) العاشرة، وهى قتل أوّل مولود(له؟) فقد أنكرها محمد واعتبرها أمرا لا يليق بالذات الإلهية. يغرق فرعون وجنوده فى البحر. وأثناء الغرق يؤمن فرعون برب موسى ويقول إنه من المسلمين، ثم ينجيه الله ليكون آية لمن يخلفه (انظر سورة رقم "يونس" الآيات ٩٠– ٩٢). إلا أن الله ينجى بدنه فقط، وفى الآخرة ينتظره عذاب النار. ويمكن أن يفهم ما ذكره القرآن فى هذا الصدد أن جثة فرعون قد حنطت لتبقى آية وعبرة للناس وعلى كل حال فإن قوم فرعون جعلهم الله أئمة يدعون إلى النار. (انظر سورة "القصص" الآية ٤١).

وبغرق فرعون ونجاة الإسرائيليين يكتمل عرض قصص العقاب أما الروايات القرآنية فلا تقف عند ذلك، بل تهتم بالتطورات التى حدثت لبنى إسرائيل لتؤسس وتبنى على ذلك تجربتها الخاصة مع الوحى. وفى هذا السياق نجد بعض الروايات التى ذكرت فى الهاجادا.

أثناء سير موسى فى الصحراء يضرب موسى بعصاه الحجر فتنفجر منه اثنتا عشرة عينا، لكل قبيلة عين[٩٧]. وكان يظلهم الغمام، وأنزل الله عليهم المنْ والسلوى[٩٨]. وبعد أن أوحى الله إلى موسى الكتاب عاد إلى قومه (بنى إسرائيل) لينذرهم إلا أن قومه أبوا أن يأخذوا الكتاب (رفضوا الإيمان به) فاهتز لهم الجبل حتى ظنوا أن الجبل سوف يسقط على رؤوسهم. وعندما أبلغهم موسى ما أُوحى إليه (الكتاب– التوراة). طلبوا منه أن يروا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة. ثم بعثهم الله من بعد موتهم[٩٩] وإذ واعد الله موسى أربعين ليلة على جبل سيناء[١٠٠] وناداه من جانب الطور الأيمن[١٠١]، وأوحى إليه، إلا أن قومه اتخذوا العجل من بعده وكان له خوار. وقد أضلهم السامرى. بعد أن أخذ من أثر الرسول وألقاه مع حُلى النساء فى النار وصنع فيه العجل[١٠٢]، ويطرد موسى السامرى من قومه ويعتبره نجساً. وعندما سأل موسى ربه أن يراه أجابه (تعالى): ﴿لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾. (سورة ٧ "الأعراف" الآية ١٤٣). ﴿فَلَمَّا

﴿تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾[١٠٣]. حسبما يذكر فى القرآن فإن موسى لم يحطم الألواح التى كتب الله عليها الشريعة (الوصايا العشر). لأن من شأن ذلك أن يتخطى حدود التصور الإسلامى ومما يعنى كذلك أن الله كان ينبغى عليه أن يكتبها مرة أخرى. بل يلتقط موسى الألواح ويختار سبعين رجلاً من قومه. وذلك تمهيداً لصعودهم معه إلى الجبل لفترة معينة، ولما أهلك الله قومه دعا موسى ربه أن يغفر لهم فاستجاب الله دعاءه وقال له إن رحمته وسعت كل شيء. أما المفلحون فهم الذين يتبعون النبى الأمى الذى يضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم[١٠٤]. وعندما أمر الله بنى إسرائيل أن يدخلوا الأرض المقدسة قالوا إن فيها قوماً جبارين وأنهم لن يدخلوها حتى يخرج منها هؤلاء الجبارون (سورة "المائدة" ٥/ ٢٢- ٢٤). وأمرهم الله أن يقولوا "حطة" (المغفرة) عند دخولهم القرية إلا أنهم بدلوا هذا القول بغيره (سورة "الأعراف" ٧/ ١٦١)[١٠٥]. وقد تعدى أهل القرية (الإسرائيليون) على يوم السبت. حيث كانت تأتيهم حيتانهم، منع (الله) عنهم الحيتان، وجعل منهم قردة (سورة الأعراف ٧/ ١٦٣- ١٦٦). وعندما مر اليهود بقوم يعبدون أصناماً طلبوا (من موسى أن يجعل لهم إلهاً مثل إله هذا القوم فذكرهم موسى بأن الله فضلهم على العالمين. (سورة "الأعراف" ٧/ ١٣٨- ١٤٠).

وفى سياق يتطابق مع روايات الهجادا أكثر مما جاء فى العهد القديم يأتى ذكر قارون عدو موسى، فى القرآن. إنه الإنسان الغنى المتكبر الذى اختلطت شخصيته مع شخصية "كروزوس" (Kroesus)[١٠٦]. وإن مفاتيح خزائنه لتنوء بالعصبة أولى القوة. لقد كان يدعى أن الله آتاه هذا المال على علم عنده، وخرج على قومه فى زينته فيحسده الذين يريدون الحياة الدنيا، فخسف الله به وبداره الأرض[١٠٧].

والبقرة الحمراء التى ورد ذكرها فى العهد القديم. (كتاب موسى ٤ الإصحاح ١٩) تصبح بقرة صفراء فى القرآن، وهى التى وجب على الإسرائيليين ذبحها (كضحية) إذا أريد الكشف عن القاتل (بعد وقوع جريمة قتل). جزء منها (يضرب به) المتوفى فيحييه الله ليشير إلى القاتل (سورة "البقرة" ٢/ ٦٧- ٧٣). لقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل وبعث منهم اثنى عشر نقيبا، وهم على ما يبدو

الاثنا عشر أميراً أوقاضياً من بني إسرائيل، فينقض بنو إسرائيل الميثاق ويحرّفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به. (سورة "المائدة" ٥/ ١٢ وما بعدهما). (انظر أيضا السور ٧٩/ ١٥- ٢٦، ٥١/ ٣٨- ٤٠، ٤٤/ ١٧- ٣٣، ٢٠ / ٩- ٩٨، ٢٦/ ١٠- ٦٨، ٤٣/ ٤٦- ٥٦، ٢٣/ ٤٥- ٤٩، ٢٧/ ٧- ١٤، ١٧/ ١٠١- ١٠٤، ١١/ ٩٦- ٩٩، ٤٠/ ٢٣- ٤٦، ٢٨/ ٣- ٤٨، ٧٦- ٨٤، ١٠/ ٧٥- ٩٣، ٧/ ١٠٣- ١٧١، ١٤/ ٥- ٨، ٢/ ٤٠- ٧٤).

لقد ذكرنا فى الفصل (المعنون بـــ) "أمام القرآن" بعضا مما ورد فى القرآن عن إبراهيم (عليه السلام). يهتدى إبراهيم عن طريق ظهور وأفول النجوم والقمر والشمس إلى معرفة الله إلهاً واحداً، ويصبح بذلك حنيفاً ويحطم الأصنام التى كان يعبدها أبوه آزر. ويمكننا إضافة أن إبراهيم لم يتمكن من إقناع أبيه بالتوحيد، بل إن أباه هدده بأن يرجمه إذا ظل على إنكاره لآلهته. يستغفر إبراهيم لأبيه، وإن كان طلبه المغفرة من الله لأبيه لم يستجب. ويجادل إبراهيم قومه فى آلهتهم ويدعى إبراهيم المرض حتى لا يشارك قومه عبادة الأصنام، وأنه عرف بمرضه عن طريق قراءة النجوم ولذلك ابتعد عنه قومه خوفاً على أنفسهم من العدوى، ويجادل إبراهيم الملك الذى تذكره الهجادا بأنه النمرود، فى الأصنام. فعندما قال إبراهيم إن الله (وحده) هو ا لذى يحيى ويميت يرد الملك، أنا الذى أحيى وأميت. فرد إبراهيم على الملك بقوله إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب[١٠٨]. وأخيراً يلقى به قومه فى النار إلا أن الله يقول للنار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم، وهكذا أنقذ الله إبراهيم وأمره أن يخرج مع لوط إلى الأرض المقدسة. هناك (فى الأرض المقدسة) تأتيه الملائكة ويبشرونه بغلام، ويدعو (إبراهيم) لقوم لوط بالهداية إلا أن أمر الله كان قد مضى فيهم.

لقد أقام إبراهيم القواعد من الكعبة مع ابنه إسماعيل، كما ذكرنا آنفا فعلى العكس مما ورد فى العهد القديم لم يكن إسحق هو الذى كان على إبراهيم أن يذبحه بل إسماعيل. وعندما أخبر إبراهيم ابنه بما رآه فى المنام من أنه يذبحه، طلب هذا الابن من أبيه أن ينفذ إرادة الله، وهنا أنزل الله أضحية من السماء بدلاً عن الابن. عندما سأل إبراهيم ربه أن يريه كيف يُحيى الله الموتى، قال له (ربه) "فخذ أربعة

من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم أدعهن يأتينك سعياً"[١٠٩]. لقد تعرض إبراهيم لاختبارات (ابتلاءات) مختلفة ثم جعله الله للناس إماماً[١١٠]. (السور ٨٧/ ١٩، ١٩/ ٤١- ٥٠، ٢٦/ ٦٩- ٨٩، ٣٧/ ٨٣- ١١٣، ٢١/ ٥١- ٧٣، ٢٩/ ١٦- ٢٧، ٤٣/ ٢٦- ٢٨، ٦/ ٧٤- ٨٤، ١٦١، ٦٠/ ٤- ٦، ١١/ ٦٩- ٧٦، ٥١/ ٢٤- ٣٧، ١٥/ ٥١- ٦٠، ٢٢/٢٦- ٢٩، ٧٨، ٣/ ٦٥ - ٦٨، ٩٥- ٩٧، ١٦/ ١٢٠- ١٢٣، ٤/ ١٢٥، ١٤/ ٣٥- ٤١، ٩/ ١١٤، ٢/ ١٢٤- ١٤١، ٢٥٨، ٢٦٠، ٣/ ٣٣).

يعتبر بعض الباحثين ما ذكر فى القرآن عن علاقة إبراهيم (عليه السلام) بالكعبة وكذلك ما ذكر عن إسماعيل إضافة من وضع محمد (ﷺ) إن لم يعتبروا ذلك تحريفاً مقصوداً. لا يوجد فى القرآن أى أثر للتقليل من شأن الكعبة. ولم يخلط محمد بين المكان المقدس للعرب (من جانب) وبين عبادة الأصنام (من جانب آخر). الله وليس إله محلّى، هو "رب البيت" (ذكر ذلك لأول مرة فى سورة قريش الآية ٣). وفى سورة النمل الآية ٩١ قال محمد[١١١]: "إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها الله وله كل شىء....". وتأتى سورة قريش فى بداية فترة الوحى الأولى فى مكة. وتأتى سورة (النمل) فى الفترة الثانية. وفى سورة الطور الآية رقم ٤ (الفترة المكية الأولى) يُقْسم محمد بالبيت المعمور وهو الكعبة، وفى سورة هود الآية رقم ٧٣ (الفترة المكية الثالثة) يخاطب الملائكة آل إبراهيم بكلمة "أهل البيت". إذن لم ينكر محمد منذ البداية، الكعبة ولا الحج، وربما أيضاً شكل العبادة فى صورتها الأساسية ولا حُرْمة دم من يحتمى فيها، بل أنكر كل ما اعترى ذلك من مظاهر الشرك، أى أنه أنكر الشرك بالله فقط. إضافة إلى ذلك يمكن للإنسان أن يفترض أن الموحدين العرب كانوا ينهجون نهج الحنفاء، وهم يعتبرون إبراهيم أول الحنفاء. وهم بذلك يكونون قد سبقوا محمداً إلى أمر هام وهو اتباع ملة إبراهيم، أى دين إبراهيم الذى كان سابقاً على اليهودية والمسيحية. وجدير بالذكر أن التصورات الأساسية للتوحيد كانت دائما مرتبطة بالمكان المقدس (الكعبة) وعلى ذلك بمكن أن يكون الاحتمال الذى طرحه و.رودولف (W Rudolph) صحيحاً والذى ذهب إلى أن النصارى العرب كانوا يربطون بين الكعبة وإبراهيم

(عليه السلام) (انظر. شباير، قصص الكتاب المقدس فى القرآن ص ١٦٢). إن التصور المذكور فى كتاب موسى الأول، بأن إبراهيم (عليه السلام) كان يبنى بيوتا للعبادة فى كل مكان يذهب إليه يمكن أن يؤيد هذا الافتراض. وتروى أيضاً الهجادا اليهودية أن إبراهيم (عليه السلام) كان يزور ابنه إسماعيل فى المكان الذى كان يقيم فيه فى الصحراء[١١٢]. ولا يمكن لأى إنسان مزاحمة إسماعيل أو إسرائيل ويرجع ذلك إلى حرفى "ئيل" (EL) الموجودين فى اسم كل منهما وهى تدل على صلة بالله[١١٣]. (انظر. بن جوريون، أقوال اليهودية المأثورة ص ٩٦، وما بعدها وص ٢٩١). وهكذا فإن نبوة إسماعيل (أبناء إسماعيل) نجد لها سنداً فى اليهودية. مثل هذه التصورات (النبوة فى أبناء إسماعيل)، لأنها تهم العرب بصفتهم من نسل إسماعيل، كانت معروفة بين العرب قبل محمد (ﷺ). وإذ كانت شخصية إبراهيم وعلاقاتها بالكعبة وبإسماعيل لم تتحدد فى الوحى بدقة إلا فى فترة متأخرة فإن ذلك قد يعود إلى أن محمداً (ﷺ) كان متشبثاً بما جاء فى اليهودية وخاصة فى كتاب موسى الخامس الإصحاح ١٥حول الإخبار ببعثه نبى فى المستقبل من بين إخوة إسرائيل (أى أبناء أخى إسرائيل وهو إسماعيل). وهو المشار إليه باسم "موسى الثانى". وإلى ذلك يمكن أيضا إرجاع توجه القبلة فى البداية نحو القدس. أما التأكيد على انتساب المسلمين إلى دين إبراهيم فقد كان نتيجة لابتعاد (الإسلام) عن اليهودية، لأن إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً وإنما حنيفاً مسلماً وإماماً ولم يكن مشركاً (السور ١٦/ ١٢٠- ١٢٣، ٣/ ٦٥- ٦٨، ٢/ ١٢٤).

ويبدو أن محمداً (ﷺ) لم يكن يعرف فى البداية أن إسماعيل هو أحد آبائه الأولين ففى الفترة المكية الأولى كان إسماعيل يذكر ضمن عدد آخر من أنبياء الله، ثم أصبح فى الفترة المدينية يذكر قبل إسحق ضمن الآباء الأولين، ولعل ذلك يعود إلى أن تصور محمد (ﷺ) لإبراهيم الحنيف وأن الحنيفية ترجع إليه مباشرة ارتبط فى هذا التصور بالبيت الحرام، هذا التصور لم يكن يحتاج إلى وجود شخصية إسماعيل. وتؤيد بعض القرائن أن محمداً (ﷺ) لم يعتقد بداية أن إسماعيل هو الذى كان على أبيه أن يضحى به لله بل ظهر ذلك الاعتقاد بشكل تدريجى فى مرحلة لاحقة، ففى سورة (الصافات) الآيات من ٩٩- ١١١ لم يرد ذكر الاسم (الابن الذى

كاد أن يذبح) أما الآيات التالية رقم ١١٢ وما بعدها حيث يبشر إبراهيم بإسحق يمكن أن تكون قد أضيفت فى فترة لاحقة.

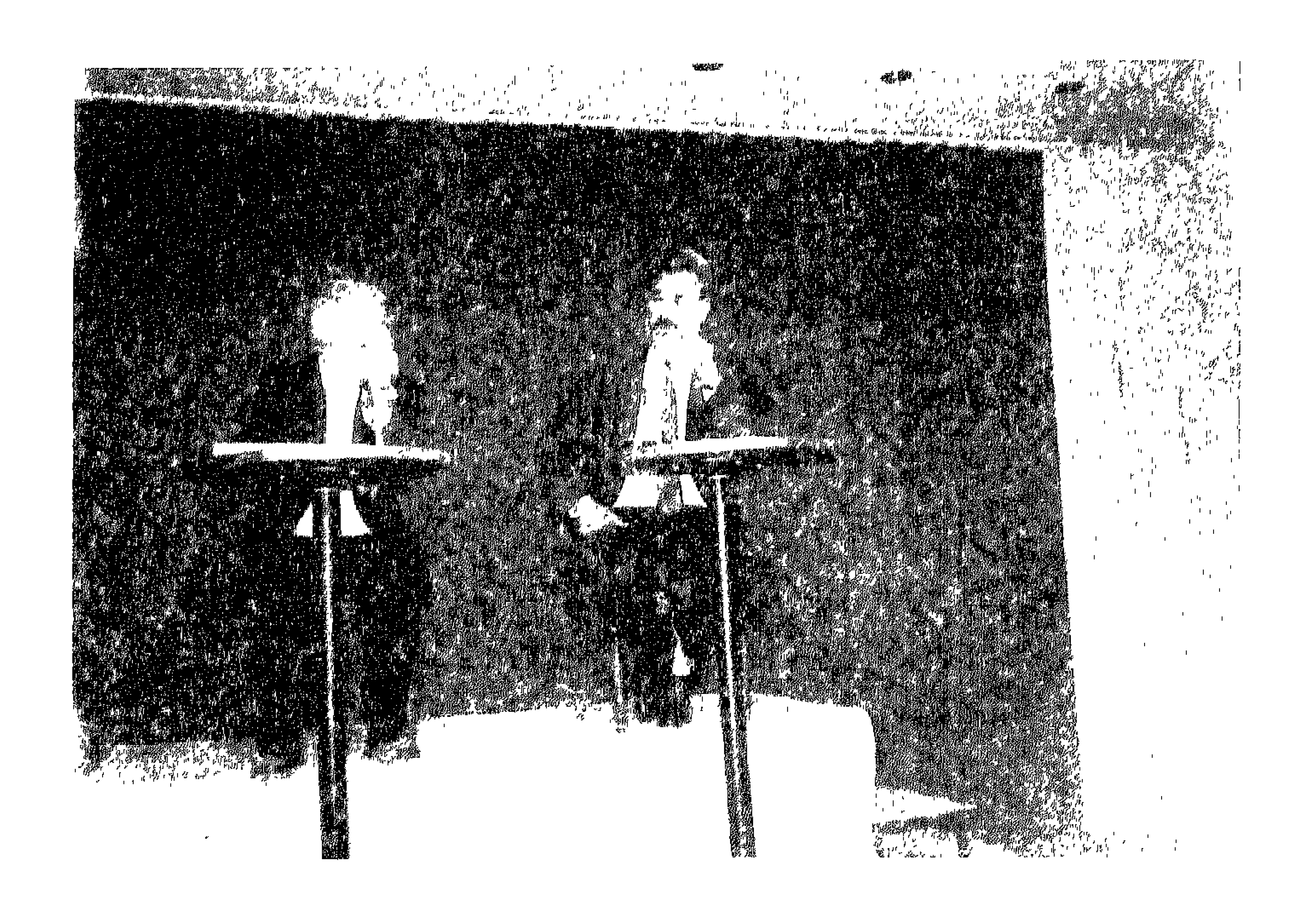
لقد تحققت فى محمد كل الأخبار التى تتعلق بالنبوة وما تعرضت له كل الرسل (كما يقول بارت) أو حسبما أورد التعبير به، مثّل (محمد) النموذج الأول (الأصلى) لكل ذلك. فالرسول هو يمثّل عودةً لذات النموذج (الأصلى) وليس لنموذج مماثل (للأول) حسب تعبير هايديجر (Heidegger)[١١٤].

هكذا نجد أن كل رسالات الرسل السابقين منذ القدم قد تحققت فى محمد (ﷺ) والعكس. ورغم ذلك فإنه يبدو لى أن بارت قد أخطأ الحكم إذ قال: "إن نظرة كهذه لتاريخ النبوات السابقة قد أنتج تكراراً هزيلاً. فبدلاً من إدراك الماضى فى صُوره المتنوعة وتطبيقه بحث محمد فقط عن نفسه (فى هذا الماضى)[١١٥] وعن الفترة التى عاش فيها بما فيها من أحداث ووجدها (بمعنى أظهرها) وتضاءلت كل الشخصيات (الأنبياء) الأخرى حيث أصبحت مجرد موضوعات باهتة (محمد والقرآن، ص ٩٠ وما بعدها). إلا أن الشيء الجديد الذى جاء به محمد يتمثل فى أنه استطاع أن يبرز الشيء الأصيل الثابت من خلال الكم الهائل المتفرق لأجزاء الوحى الإلهى. والذى ظهر بلون أصيل ليس باهتاً على الإطلاق، وبشكل أولى مرتب. إنه الوحى الأصيل الذى هو أصل كل الرسالات السماوية وهو الذى حمله كل الرسل إلى أقوامهم وكان دورهم يقتصر على مجرد التجديد والتطوير (لذات الرسالة).

هكذا نكون قد توصلنا إلى الحديث عن العلاقة التى تربط كل الرسل مع رسالة واحدة أو رسالة مقدسة والتى تعود فى النهاية إلى أصل واحد أى الكتاب الأصلى عند الله. هذا الكتاب الأصلى، الذى يسمى فى القرآن "أم الكتاب" (السور ٣/ ٧، ١٣/ ٣٩، ٤٣/ ٤)، يكوّن أصل (جذر) كل ما نزل به الوحى من تصورات وشخصيات وأحداث فى صورنها الأولية الموجودة عند الله فيما يشبه ما ورد فى إنجيل يوحنا (١/ ١) حول الكلمة الأزلية (Logos) ولعل كلمة الكتاب الأول (اللوح المحفوظ) هى مجرد وصف أو رمز لها (للكلمة الأزلية).

إن الكتب المقدسة التى نزلت إلى الشعوب المختلفة أو الأمم الدينية هى

حسبما عبر عنها "كيلرهالس" (E Kellerhals) ليست سوى نشرات إقليمية لذات الوحى السماوى الأصيل (الإسلام، ص ٧٩). وهذا صحيح، وفى ذات الوقت غير دقيق فى التعبير، لأن الأصل الأول لا يمكن أن يظهر فى الدنيا (على الأرض) إلا فى صورة متجددة باستمرار لكى يظل محافظاً على صورته الأصلية. (وهذا يعنى فى النبوات) عودة ذات الشيء وليس عودة مثيل الشيء.



المترجم يشرح وجهة نظره حول ما يمكن أن تؤدى إليه معالجة ليسينج للعلاقة بين الديانات الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلام ويحذر من محاولة دمج هذه الديانات الثلاث فى دين واحد أو كذلك خطورة التشكيك فى يقينية الأديان الثلاثة حسبما يعتقده اتباع كل دين.

الفصل السادس

عيسى (عليه السلام)

كثيراً ما يعترض المسيحيون على أن القرآن يتحدث عن المسيح بصفته نبياً فقط، ولكون هذا الاعتراض يصدر فقط عن المسيحيين - الذى يعتبرون المسيح ابن الله وأحيانا أنه هو الله ذاته بمعنى ميتافيزيقى- وبما يعنى أن المسيح نوع (صورة) من صور الإله - لابد أن يكون هذا الاعتراض النموذجى حافزاً على التفكير (فى هذا الأمر).

ويبدو أن أصحاب هذا الاعتراض يرون فى وصف المسيح بأنه نبى فقط تضييع لشىء هام جداً يتصل بالوحى الإلهى الذى ظهر من خلال عيسى وتجلى فيه أيضا. وهذا يعنى أن الوحى القرآنى (فى هذا الشأن) لم يعبر عما يعيش فيه الإنسان عند لقائه بالمسيح. كما أن هذا الاعتراض قد يكون مجرد إدعاء دفاعى لتبرير التراخى المعهود (لدى المسيحيين) عن الاشتغال بفهم القرآن، وحتى لا يضطر إلى التخلى عن دعوى تملك الحقيقة المطلقة. لذا أصبح الكتاب الذى يعتبر المسيح مجرد نبى هو غير جدير بالاهتمام عندهم.

حقا إن القرآن يذكر عيسى على أنه رسول (الله) كما هى الحال فى سورة المائدة/٧٥. حيث تؤكد الآية على أنه رسول قد خلت من قبله رسل. كما تشير الآية السابقة على هذه الآية إلى تكفير كل من يقول إن المسيح هو الله. وكذلك الذين يقولون إن الله ثالث ثلاثة فى سورة المائدة/ ٧٣. وفى سورة النساء/ ١٧١ يأتى التأكيد على أن عيسى ليس إلا رسول، إلا أن ذلك تبع مباشرة بالقول بأنه كلمة الله التى أوحاها إلى مريم، وهو روح الله وهذه التكملة الأخيرة لهذه الآية يمكن أن تكون مناسبة لدفعنا إلى الاستماع (مواصلة القراءة) لأن وصفه (عليه السلام) بأن مجرد رسول هو تعبير عظيم المغزى فى الإسلام. إن الله يتجلى لشعب ما من خلال الرسول، والتجلى هنا لابد أن يفهم بالمعنى الغيبى (ليس ظهوراً مباشراً). بمعنى أنه تمثيل لحضور الإله حسب تعبير سى. هـ. راتشوفز (C. H. Ratschows). ولعله من الهام جداً بالنسبة للحوار المسيحى الإسلامى تتبع الآيات التالية التى ذكر فيها عيسى (عليه السلام) (السور ١٩/ ٢- ٤٠، ٤٣/ ٥٧- ٦٥،

٢٣/ ٥٠، ٢١/ ٨٩-٩٤، ٤٢/ ١٣، ٦/ ٨٥، ٢/ ٨٧، ١٣٦، ٢٣٥، ٣/ ٣٣- ٥٧ ، ٥٩/ ٨٤، ٦١/ ١٤، ٥٧/ ٢٧، ٤/ ١٥٦- ١٥٩، ١٦٣، ١٧١ وما بعدهما، ٣٣ / ٧ وما بعدهما، ٩/ ٣٠- ٣٣، ٥/ ١٧ وما بعدهما، ٤٦ وما بعدهما، ٧٢- ٧٧، ٧٨، ١١٠- ١٢٠).

وسوف نذكر فقط أهم هذه المواضع.

وحول سورة (مريم) جاء فى "تاريخ القرآن" لمؤلفيه نولدكه وشفاللى (المجلد ١ ص ١٣٠): هذه السورة تعتبر أول السور التى ذكر فيها شخصيات مقدسة من العهد الجديد مثل مريم وزكريا ويحيى وعيسى، أو هى على الأقل إحدى أوائل هذه السور؟ وهى تنتمى إلى الفترة المكية الثانية. وهذه السورة المؤثرة والتى تعتبر السورة الوحيدة التى سُميت باسم سيدة أى "مريم" تربط، كما هى الحال فى إنجيل لوقا، قصة حياة يحيى المعمدان مع قصة حياة عيسى، إلا أنها ورغم بعض الأقوال المطابقة لما جاء فى إنجيل لوقا، تسير فى طريق خاصة بها. هناك يدعو زكريا ربه.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا(٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا(٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا(٦)﴾[١١٦] (نتيجة لهذا الدعاء يبشره الله بولد اسمه يحى والذى جاء فى حقه نصا)" يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا(٧)﴾ (الآية ٧ من ذات السورة (مريم ١٩).

تعرضت هذه الملحوظة القرآنية للنقد لأن هذا الاسم كان معروفاً آنذاك وقبل ذلك يؤخذ[١١٧]. إلا أن الرد على هذا النقد يمكن أن يُستمد مما جاء فى إنجيل لوقا ١/ ٦١ حيث يوخذ على الأم أن هذا الاسم (يحيى) لم يتسمَّ به أحد فى عائلتها من قبل.

يجيب الله (تعالى) على قول زكريا بأنه أصبح شيخاً متقدماً فى السن وأن امرأته عاقر فكيف يكون له ولد، فيذكر الله تعالى زكريا بقدرته المطلقة على الخلق (بقوله تعالى): ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ (الآية رقم ٩ من ذات السورة "مريم" (١٩)).

وجعل الله لزكريا آية وهى ألا يكلم الناس ثلاث ليال سوياً (انظر الآية رقم ١٠من سورة مريم). وبعد خروج زكريا على قومه من المحراب أوحى إليهم ﴿أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا[١١]﴾ (سورة مريم (١٩)). ثم ينادى الله: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا[١٢]﴾، ويشير هذا القول إلى إخلاص يحيى وتمسكه القوى بالتوراه. ويصف القرآن الكريم يحيى بالحكمة والحنان (الرحمة) والطهر (الزكاة). وكان نقيا وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً،!! وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً[١١٨].

ثم يأتى ذكر مريم فى هذه السورة ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا[١٦]فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا....[١٧]﴾. غالب الظن أن هذا المكان كان معبداً موجوداً فى الجانب الشرقى حيث اعتكفت مريم لتتفرغ للعبادة، أو كما يرى الزمخشرى، وهو أحد مفسرى القرآن[١١٩]، أنها بحثت عن مكان طاهر بعيد على جبل صهيون لتنظف شعرها من القمل (انظر جـ. جيتيه القرآن وتفسير القرآن ص ١٦٥)[١٢٠].

وحسبما ورد فى حزقيال ٤٤/ ١ وما بعدها فإن الباب الخارجى الشرقى للمكان المقدس هو المكان الذى دخل منه الإله وحده إلى هذا المعبد. وقد فسرت الكنيسة القديمة هذا القول بأن المكان المقدس المقصود هنا هو مريم نفسها حيث دخلت الكلمة (كلمة الله) إلى جسدها لتصبح إنسانا. ومن المحتمل أن يكون لهذا أثر فيما ورد فى القرآن عن تحديد الموقع الذى حدثت فيه وقائع الرسالة، مكانا قصياً (شرق المعبد). (قال تعالى): ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا[١٧] قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا[١٨]قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا[١٩]قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا[٢٠]قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا[٢١]فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا[٢٢]﴾(سورة مريم (١٩)/ ١٧- ٢٢).

وحســـب التفسير الإسلامى (الزمخشرى) فإن الروح الذى ظهر لمريم كـــان الملك جبريل الذى جاءها فى هيئة شاب يخلو من كل عيب، غير ملتح بوجه نضر وشعر مجعد ومتناسق القوام. ويقال أيضاً أن جبريل تمثل لها فى

هيـئة يوسـف (الـنجار). وبصفته حاملاً للروح فقد حملت مريم فى عيسى بسـبب نفخـة (نفخهـا جبريل فيها). وتبعا لما جاء فى القرآن فإن عيسى لا يحمـل فقـط روح الله بـل إنه خلق من روح الله، وهذا يعنى أن ذاته ومنذ الـبداية هـو مـن روح الله التى أصبحت بشراً وهذا هو المقصود بأنه آية للبشـر، وأنـه يمثل رحمة الله (قال تعالى): ﴿فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَـالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا(٢٣) فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا(٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا(٢٥)فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَـرِّي عَيْـنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا(٢٦)﴾ (سورة مريم (١٩)/ ٢٣- ٢٦).

وقد ذهبت (الباحثة) إلزا صوفيا فون كامبهوفنر (Elsa Sophia Von Kamphoevner) إلى ما تحدثنا عنه فى فصل سابق، وهو أن ميلاد الطفل فى الصحراء تحت شجرة يعبر عن رمز أو نموذج أوّلى من شأنه أن يربط بين ميلاد عيسى وميلاد كل من بوذا ومحمد. إن التصوير (العرض) القرآنى لقصة الميلاد (ميلاد عيسى) جديرة بالاستقلال عما ورد فى إنجيلى متى ولوقا. ولا يقلل ذلك من أهميته أنها قد وردت بلا شك فى رويات سابقة ومثال ذلك ما نجده فى الروايات التى نسبت خطأً إلى متى.

هناك نجد رواية تعرض أحداث الهروب (هروب مريم) إلى مصر جاء فيها أن مريم كانت شدة الحر فى الصحراء قد أنهكتها، وتمنت لو أنها وجدت ظلاً لنخلة كبيرة لتستريح تحتها. وعندما جلست تحتها رأت أن رأس النخلة تحمل كثيراً من التمر الناضج إلا أنها مرتفعة جداً إلى درجة أن يوسف لا يستطيع الوصول إليه وجنى بعضه. وكان يوسف يشكو أيضا من قلة الماء اللازم لأسرته وللحيوانات التى يركبونها، هنا تكلم الطفل عيسى، الذى كان يجلس سعيداً فى حجر أمه، إلى الشجرة وأمرها بأن تنحنى وأن تطعم والدته من تمرها، وعقب هذا الأمر انحنت النخلة وانخفض رأسها إلى مستوى قدمى مريم القديسة، فجمعوا منها التمر. وظلت النخلة منحنية تنتظر الأمر بالعودة إلى وضعها الطبيعى، ممن أمرها بالانحناء. هنا أمرها عيسى بقوله: "عودى واستقيمى وكونى إحدى نخيلى عند أبى، واجعلى تحت

جذورك شريان ماء يختفى تحت الأرض ويُخرج لنا ماءً نزيل به ظمأنا. وهنا استقامت النخلة مباشرة وخرج من تحت جذورها عينا من الماء النقى الطازج صافى اللون وعندما رأوا عين الماء (البئر) غمرتهم سعادة عظيمة فأطفأوا ظمأهم وسقوا حيواناتهم وحمدوا الله لذلك (آية ٢ وانظر هينيكة-شنيميلشر: أساطير من العهد الجديد، مجلد ١ ص ٣٠٧ وما بعدها)[١٢١]، إن الرواية القرآنية هى من حيث دلالتها النموذجية (الأصلية) تعتبر أكثر أصالة من الأساطير المسيحية حول الميلاد (ميلاد عيسى (عليه السلام)) والتى تضمنت المادة الأولى لها. لقد استطاع محمد أن يستوعب الأفكار الأصلية التى وردت عند متى ولوقا والتى كان لا يعرفها (فى أصلها) بل عن طريق الروايات التى نسبت إليهما والتى سمع بها، كما استطاع أن يعيد عرضها عرضاً صحيحاً[١٢٢].

وباعتبار النموذجية (الأصالة أو الأولية) فإن الرواية القرآنية تعتبر أقدم الروايات (بمعنى الأكثر مطابقة للأصل) (فى هذا الشأن).

تعتبر الشجرة فى الأساطير الشعبية زمراً للأم وفى الوقت نفسه النموذج الأصلى للذات (الصورة الأصلية للذات الإنسانية).

إنها (الشجرة، الذات) تنبت من نواة كلية ثم تتشعب (تنتشر) فى كل الأبعاد، ثم تتفرع لكى تتحقق ذاتها فى هيئة الثمار. وهى فى ذات الوقت أساس وغلاف (بمعنى مادة وصورة) الأنا الذى لا يمكنها التأسس والتحدد (التّشخّص) سوى فى أحضان (حجر) الذات.

هكذا فإن أم عيسى تتمثل فى الشجرة النموذجية، بينما الطفل المولود هو الطفل النموذجي الذى يمثل تجدد الحياة (الميلاد من جديد)، الوجود الجديد، العلاقة التى يدركها الأنا وتربطه بالذات، والكمال (الاكتمال) الذى يُستمد منها (من هذه العلاقة) عن قصد. يذكر إيريك نويمان (Erik Neumann) الذى ناقش هذه العلاقات فى كتابه (الأم الكبرى Die grosse Mutter) الإلهة المصرية القديمة حتحور كمثال لذلك. ويشبه الإلهة (حتحور) الشجرة التى تغذى الأرواح. لقد كانت الشجرة (سيكوموره) أو النخلة شيئاً

أساسياً فى مصر. لقد كانت الولادة وولادة الشمس وكذلك توفير الغذاء من علامات الأمومة للشجرة الإلهة السيكوموره (الشجرة الأم) حتحور والتى ولدت حوروس بصفتها بيت حورس، تحمل الشمس فوق رأسها، وتمثل قمة الشجرة (رأس الشجرة) مكان ميلاد الشمس. والعش الذى يخرج منه طائر الفونيكس (أبو قردان) (ص ٢٣٠).

ويذكر نويمان عدداً من الأمثلة التى تشير كلها إلى نموذج جماعى. وتذكر (الباحثة) إيما يونج أمثلة من روايات بيرسيغال، جاء فيها أن بيرسيغال قد وصل إلى شجرة أثناء سيره فى الغابة ممتطياً جواده، فرأى طفلاً من بين أغصان الشجرة. هذا الطفل يمثل الاكتمال (اكتمال الخلق) الذى كان بيرسيغال يقترب منه فى مرحلة فاصلة من مراحل رحلته البحثية (عن الذات) (أيما. يونج/ م. ل. فون فرانتس، أسطورة جرال ص ٢٨٩ وما بعدها)[١٢٣].

وترتبط الشجرة المثمرة بعلاقة مع شجرة المعرفة التى ذكرت فى وصف الجنة فى الكتاب المقدس. وتشير إلى ذلك الروايات المنسوبة إلى متّى. ويتعلق بهذا أيضاً ما ذكرت عن البئر الذى فاضت منه الماء. إن الثمار الطازجة التى أهديت إلى حواء الجديدة مريم والتى يعود الفضل فى حصولها عليها إلى الطفل الذى يمثل الوجود الجديد تمثل الصورة العكسية (المقابلة) للثمار المحرمة التى تعبر عن حالة ارتكاب الذنوب.

يعرض القرآن واقعاً أصيلاً (صحيحاً) لما ورد فى الروايات الأسطورية (يصحح ما ورد فيها) ويضيفه إلى التاريخ الدينى، فيخلق الله النموذج الأصلى، النموذج الأصلى موجود عند الله. والقرآن الأول (الأصلى) يخرج إلى حيز الزمان.

(قال تعالى):﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا(٢٧)يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا(٢٨)فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا(٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا(٣٠)وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا(٣١)وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا(٣٢)وَالسَّلَامُ

عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا(٣٣)﴾ (سورة مريم (١٩)/ ٢٧- ٣٣).

إن الصورة التى تقابلنا أولاً من خلال هذه السطور هى صورة الأم مريم التى تحمل طفلها على ذراعيها. هذه الصورة عرضت بطرق متنوعة لانهاية لها فى الفن المسيحى، إلا أن المسيحية قد توقفت عن الصورة الأولى للطفل النموذجى. ويدخل فى هذه الدائرة (الصورة) تصور الطفل فى حجر أمه، وكذلك تصور الطفل الهادئ والطفل الذى ينام فى سريره مبتسماً ابن العذراء الذى يعرفه القرآن (ذكر فى القرآن)، كما ذكرنا سابقاً، يمثل الرابطة السعيدة والتى لا تشوبها أى شائبة بين الأم والابن.

هذه الرابطة التى لم يتدخل فيها أب، هى أمل خيالى (يوتوبيا) فى عالم فردوسى سعيد دائم العطاء دون مقابل من عمل أو عناء. أنه رمز لمملكة المستقبل المليئة بالسلام والأمان. وقد ذكرت هذه السعادة المنتظرة لآخر مرة فى إشعيا (اصحاح ٧، ٩، ١١) وفى ميشا (الاصحاح ٥). ويذكر ذلك أيضا "فرجيل" فى مختاراته رقم ٤ من أشعار الرعاه.

ويعرف القرآن هذا الرمز إلا أنه يتجاوز الأخطار التى يتضمنها هذا التصور للطفل النموذجى (المثال). لقد أشارت (الباحثة) حنا فولف فى كتابها "عيسى الرجل"[١٢٤] إلى أن صورة المادونا (مريم) مع الطفل فى الروايات الغربية تتسم بسمات غير متطوره (متخلفة). وهى تظهر البروتستنتية الشعبية على أنها سقوط في (عقدة) الأب وفى مقابل ذلك تظهر الكاثوليكية الشعبية على أنها سقوط فى (عقدة) الأم. تظهر الأم فى صورة قوية (قاهرة) يبدو منها أنها تعرف ما يخصها كما تعرف وسائل تحقيق ذلك. هنا تكون النجاة، الخلاص الباطنى (النفسى أو الروحى) مضمونه بلا شك.

وإن كان هذا لا يعتبر النجاه (الخلاص) الأبدى غير مشروط، إلا أن أحداً من أطفال هذه الأم العظيمة لن يضيع (يضل) أبداً. وعلى أسوأ الاحتمال فقد يعانى أحدهم بعض العذاب المطهر من الذنوب ويعاقب قليلاً على ذنوبه. ليس لأحد حق الاختيار على وجه الحقيقة لأنه من حيث المبدأ لن يكون لأحد أن يختار غير هذه الأم صاحبة القدرة المطلقة (ص ١٦٣). وتبعاً لما ذكرته "حنا فولف" فإن هذه العلاقة

متضمنة رمزياً فى شعائر تقديس مريم. فى المقابل حقق "لوتر" خطوة هائلة نحو تحقيق الذات. ويرى لوتر أن هذا الأمر شيء مصيرى بالنسبة للكنيسة الأم. التى ترمز لها صورة الأم الكبرى والتى حققت ذاتها عن طريق من يمثلونها. إلا أن لبعض يريد أن يستقل نفسياً عن الأم الكبرى، والبعض الآخر يريد أن ينفض عن نفسه الطفولة أمام الله (ص ٤٥). وتذهب "حنا فولف" خطوة أخرى إلى الأمام (فتقول) لقد اجتمعت كل ناصر التصور الخاص بالحاكم (القاضى) فى شخصية الطفل الورد عيشى بمنتهى الدقة. إن الطفل اللطيف ذا الشعر المجعَّد (عيسى) هو فى ذات الوقت حاكم العالم. لقد أصبح كل المحيط النفسى والروحى مظلماً. النهاية (القيامة) ويوم الحساب تتبع ذلك. ويشعر الإنسان بالأحكام النهائية التى لا مفر لأى إنسان منها، رقصات الموتى وتأملاتهم كثيرة للغاية، نار الآخرة الحارقة (نار جهنم) يصل لهيبها إلى هذا العالم (ص ٤٦)، إنها طاقة الشهوة التى حبستها رابطة الأمومة ولم تنطفئ بعد وهى التى تظهر فى صورة قوة وإرادة للإفناء.

لكن نموذج الطفل (مثال الطفل) ليس فقط مجرد تشخيص لضعف الطفولة الوديعة، بل يمكن أن يكون تعبيراً مناسباً عن يقين الوجود الكامل وعن الاطمئنان الذاتى. إنه يظهر كتعبير عن تحقيق الذات والروح، وبصفة خاصة فيما يتعلق بمشكلات نصف الحياة الثانى (بعد البعث). ويقول ك. ج. يونج بالنص: "يمكن للروح ان تظهر عند الجنسين (الذكور والإناث) فى صورة صبى أو شاب، ويمكنها أن تكون إيجابية حيث تعبر عن الشخصية السمى للذات" (لمؤلَّف الأساسى ١/٩، ص ٢٣١). وبهذا المعنى تماماً يأتى نموذج الطفل (مثال الطفل) فى القرآن.

هذا الطفل لا يوصف بالضعف مطلقاً، إنه يتمتع بثقة ذاتية خالصة. بعد مولده مباشرة يأخذ زمام المبادرة ويقف إلى جانب أمه (يساعدها) التى كانت تحتاج لمساعده، فيناديها (مريم) وهو لا يزال فى حجرها وهى حزينة ويائسة أن تشرب من الماء الذى خلقه الله، وأن تهز بجزع النخلة لتحصل على بعض ثمرها. ثم يعطى أمه نصيحة ذكية تردُّ بها على أسئلة الفضوليين، ثم يقف فى مهده ويطهر أمه من كل ما أحيطت به من ظنون بأن بدأ هو بالحديث وقال إنه عبد الله آتاه الكتاب وجعله نبيا[١٢٦]. يظهر هنا نموذج (مثال) الطفل فى هيئة تقترب مما جاء فى بعض الديانات الأخرى حول المكر الإلهى أو الولد الشقى. فتذكر هنا ما روى

عن الطفل كريشنا والطفل بوذا (طفولة كل من كريشنا وبوذا).

إذا كان "صدر الدين" يذهب في تفسيره للقرآن إلى أن التحديد الزمنى للحديث الذى جرى بين مريم التى كانت تحمل طفلها من جانب وقومها من جانب آخر لم يذكر صراحة فإن ذلك ينبه إلى أن هناك فارقا زمنيا كان كافياً لكى يكبر عيسى ويصل إلى المرحلة التى يمكنه فيها أن يكون نبياً، ويستقبل الوحى الإلهى (ص ٥٠٧). فإنه محق من المنظور التاريخى بالطبع، إلا أن مثل هذا التفسير لا يمكن أن ينفى الإثارة المتضمنة فى المثالية الأولية (النموذجية). إن الوجود الجديد يتمثل رمزياً فى المثال الأول للطفل (النموذج الأول للطفل)، الميلاد أو الميلاد من جديد من الروح، التى نُصبح نحن من خلالها طفلاً بمعنى الوجود واليقين الذاتى، وليس الطفولة (بالمعنى المألوف) لقد ذكرت بشكل مألوف (متكرر) فى القرآن عبارة عيسى بنى مريم. أى أن عيسي ذكر دائماً مع أمه (منسوباً إلى أمه)، إن عيسى وأمه يمثلان رمزاً غيبياً مترابطاً، أى الإنسانية الجديدة، وهذا الرمز يمكن مقارنته من بعض الوجوه مع رمزية القيامة[١٢٧] ١٢/ ١- ٦. إن شخصية أنثى الشمس التى وردت فى تلك الروايات، والتى تلد المسيح تشير أيضا إلى اتجاه اكتمال الإنسانية الغيبى الشامل.

إن ما ورد فى السورة رقم ١٩ (سورة مريم) من صفات وصف بها عيسى نفسه جديرة بالاهتمام. إن وصفه لنفسه بأنه "عبد الله" تنقلنا إلى عصر المسيحية الأصلية فى تاريخ الرسل، وفى تعاليم المسيحية الأولى الموجودة فى تعاليم الرسل الاثنا عشر يسمى عيسى "عبد الله". هذا ما نجده فى تاريخ الرسل ٣/ ١٣: " لقد رفع الله عبده عيسى إلى درجة العظمة" وجاء فى ٣/ ٢٦: "من أجلكم أخرج الله لكم عبده، وبعثه لكى يباركم من خلال تطهير كل واحد منكم من ذنوبه". وفى ٤/ ٢٧ (جاء): "نعم لقد اجتمعوا (قومه) فى هذه المدينة ضد عيسى عبدك المقدس الذى طهرته. فى ٤/ ٣٠ (جاء): مد يداك (يا الله) حتى يأتينا الخلاص والآيات والمعجزات من خلال عبدك المقدس عيسى. "تعاليم الرسل الإثنا عشر تشكر الله فى العشاء المقدس بوعاء لخمر داود المقدس، عبدك الذى أظهرته لنا من خلال عيسى عبدك (٩/ ٢).

من الغريب أن كلا من داود وعيسى قد وصف بأنه عبد الله فى كل

المواضع المذكورة فى تاريخ الرسل الإثنا عشر، وتذهب النظرة المتعمقة فى ذات الوقت إلى نشيد عبد الله المذكور فى كتاب أشعيا الثانى (الإصحاح ٤٢، ٤٩، ٥٢ وما بعده) (حيث جاء): انظر هنا يا عبدى، إلى ما أتمسك به، هو مصطفاى (من اخترته) والذى رضيت عنه نفسى لقد وضعت روحى عليه لكى يبلغ الحقيقة وينشرها بين الشعوب (إشعيا ٤٢/ ١). إن عبد الله هو الذى يحمل روح الله، وهو أيضاً الذى وصف بأنه موسى الثانى. إلا أن الحديث عن هذا الموضوع سوف يأتى فى موضع آخر، لأنه يتفق بشكل خاص مع رسالة محمد.

عندما يقدم عيسى نفسه بصفته من أهل الكتاب وكذلك بصفته نبياً، لابد إذن أن يعتبر مبلّغا للإنجيل، وحيث تتحد فى هذا التصور رسالة عيسى مع الكتاب الذى سمى طبقاً لذلك وهو الإنجيل. ولأن عيسى هو الإنسان الذى خلق من روح الله فهو إذن الرسالة نفسها، وذلك على خلاف الكتب المسماة بالأناجيل. فهو بذاته الإنجيل الموجود داخل الأناجيل. وبصفته إعلاناً للمحبة الإلهية يظهر(عيسى عليه السلام) فى العرض القرآنى والتى تحققت بقوله تعالى ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ...﴾ (سورة مريم (١٩)/ ٣١). ويذكرنا هذا التعبير بما ورد فى الأناجيل من قدرة عيسى الدائمة على إبراء المرضى بإذن الله[١٢٨].

إن الآيات التى وردت فى السورة رقم ١٩ (مريم) يلحق بها آيات أخرى تكملها فى سورة (آل عمران) حيث جاء (قوله تعالى): ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ(٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ...﴾. تكوّن الأسماء المذكورة (فى هذه الآية إلى حد ما المركز الرئيسى للوحى (الإلهى) ومنه (من هذا المركز) انحدرت مريم وعيسى. يسمى عِمران (Imran) فى العبرية عَمران (Amran) وهو والد موسى وهارون وأختهما مريم (موسى ٤/ ٢٦، ٥٩). وتعتبر قبيلة آل عمران، كما ورد فى سورة (آل عمران) رقم ٣، عائلة مريم التى انحدرت منها، ويشهد بذلك ما ورد فى سورة (مريم) آية ٢٨ من وصف لمريم بأنها أخت هارون. لقد استند البعض إلى هذا الوضع وادعى أن محمداً أعتبر مريم أختاً (حقيقية) لهارون وذلك على أساس اتفاق اسم مريم أخت هارون مع اسم مريم أم عيسى، ومن هنا أيضا فى سورة آل عمران الآية ٣٥ أن امرأة عمران هى أم مريم. ومع أن هذا الاحتمال لا يستبعد تماماً، إلا أنه يمكن أن يكون المقصود بذلك

هو فقط الإشارة إلى سيدة انحدرت من قبيلة هارون وعمران. وقد تكون هذه التفسيرات تفسيرات كنسية توحى بأن مريم أم عيسى هى مريم الثانية.

الأقوال التالية حول قصة ميلاد وطفولة مريم مأخوذة فى مواضع كثيرة عن الإنجيل الأول (القديم) ليعقوب. ولن ندخل فى التفاصيل ولعله من الهام (القول) بأنه على خلاف ما ورد فى الإنجيل الأول فإن مريم، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، تذكر كأحد أفراد عائلة موسى، وهنا يمكن القول، على منوال القول بأن مريم (أم عيسى) وهى مريم الثانية، بأن عيسى هو موسى الثانى، وهذا ما يقترب مما كان يعتقده اليهود المسيحيون. إن امرأة عمران، كما جاء فى القرآن، كانت قد دعت ربها بقولها: "إنى نذرت لك ما فى بطنى" (آل عمران/ ٣٥). إلا أن المولود لم يكن ذكراً (ولدا) بل هو الفتاه مريم ويقبلها الله نذرا من أمها للمعبد ثم تنشأ فى رعاية زكريا (هو حسب ما ورد فى الإنجيل القديم يوسف "النجار"). "وكلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا". إن الله كان يطعم مريم بنوع رائع من الخبز السماوى، وهذا القول يُكْمل ما ورد فى سورة (مريم) ويوضح كيف جاءت مريم إلى المعبد (المحراب). وتتحدث الآيات التالية (٣٨- ٤١) عن بشارة زكريا بأن سيكون له ولد. وهنا يذكر أن يحيى سوف يؤمن بكلمة من الله. أما كلمة الله التى أصبحت إنساناً فهى حسبما ورد فى القرآن عيسى. وفى هذا السياق (المعنى) تختلف العبارة التى قالها ملائكة البشارة (والحديث هنا يظهر أنهم كانوا مجموعة من الملائكة) (قال تعالى): ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (الآية ٤٥).

وهنا يوصف عيسى نصاً، كما أشرنا من قبل، بأنه كلمة الله (der Logos Gottes)، التى أصبحت إنسانا فى بطن مريم. ومن هنا فإن عيسى يتبوء مكانة رفيعة فى القرآن، فهو الكلمة، كلمة الله متمثلة فى شخص (إنسان). كما أنه فى ذات الوقت الإنسان الروحانى الجديد. وفى الآية ٥٩ نجد (قوله تعالى) ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾، ويقول تعالى:﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاء إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (الآية ٤٧).

فحسبما ورد فى القرآن فإن عيسى وآدم خلقهما الله مباشرة دون توسط أب من البشر (إنسان). (لذلك يمكن القول) إن عيسى هو آدم الثانى، الإنسان الغيبى الجديد الذى خلقه الله[١٢٩]. (وظهوره ذو معنى غيبى يخص كل البشر. وسوف نلتقى فيما هو أتٍ بآيات قرآنية أخرى تؤكد وتعمِّق هذا المعنى.

الملائكة تسمى عيسى المسيح، ويقصد بذلك أنه المسيح الذى كان ينتظره بنى إسرائيل، ويشار أخيراً فى هذا الموضع إلى أنه (عيسى) سيكلم قومه فى المهد وسوف يؤتيه الله الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل (الآية ٤٨). ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى عنصر الحكمة فى روايات الكتاب المقدس، هذا العنصر الذى يتم تجاهله ببساطة فى مقابل الشريعة والإنجيل، العهد القديم والعهد الجديد، ويتحدث عيسى إلى بنى إسرائيل بصفته رسولاً (قال تعالى): ﴿...أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (الآية ٤٩).

ويقدم عيسى نفسه (لقومه) على أنه ممن يأتى بالمعجزات، وأنه المخلص من الأمراض. ويستخدم القرآن هنا روايات غامضة مثل الخلق والإحياء لطيور مصنوعة من الطين. وترجع هذه القصة إلى رواية يبدأ بها إنجيل الطفولة المنسوبة إلى توماس[١٣٠]. وقد جاء فى هذه الرواية أن عيسى كان ذات مرة يلعب أثناء طفولته وكان عمره خمس سنوات، عند مجرى إحدى القنوات المائية وكان يحول مجرى المياه إلى حفر حفرها هو ثم يجعلها نقية بكلمة منه. ثم صنع من الطين اللين اثنى عشر طائراً، وكان كل ذلك فى يوم السبت. وكان يلعب معه كثير من الأطفال ثم أبلغ أحد اليهود أباه يوسف (الأب الظاهر لعيسى (عليه السلام) عند المسيحيين) بعدم احترام الطفل عيسى لعطلة يوم السبت المقدسة، ثم ينادى (يوسف) ابنه ليعنفه عل ذلك، فمكان من عيسى إلا أن صفق بيده وأمر الطير الذى كان لا يزال طيناً بالانطلاق فانطلق الطير وطار بعيداً (بعد أن أصبح طيراً حياً). هذه القصة تنتسب إلى مجال (ما يسمى بـــ) بالمثال الأول للطفل. (Kind-Archytyp). لقد فهمت هذه القصة خطأً على أنها مجرد قصة مسلية للأطفال. لذلك فإنه ينبغى التنبيه إلى معناها الحقيقى وهو كالتالى: يلعب عيسى على نهر

الحياة فى المكان الذى يربط ضفتى النهر (جسر صغير). إنه هو الذى يوقف نهر الحياة الذى يخرج منه الخلق الجديد الذى ترمز إليه إلاثنا عشر طيراً. ويشير عيسى من خلال لعبه على المعبر إلى الضفة الأخرى من النهر، وهى مملكة السلام وخلاص الروح. وينطلق البشر الذين خلقوا من جديد إلى كل أنحاء العالم. ونشيدهم هو رسالة عيسى.

لقد ذكر القرآن هذه القصة بشكل مبسط وأرجعها إلي عناصرها الأساسية. فعيسى، كلمة الله التى تحولت إلى بشر، يستطيع أن يخلق كما يفعل الله إلا أن هذه الحياة التى يخلقها عيسى لها نوعية أخرى. وترمز الطيور إلى النفس (الروح) منذ قديم الزمان. يجعل عيسى من الإنسان كائناً يحس بروحه بصفتها نفخة من روح الله. وأن روحه تحمل شيئاً من ذلك يعطيها السلام. (قوله الله تعالى على لسان عيسى، "وأُبرئ الأبرص والأكمه وأحيي الموتى بإذن الله" (الأعراف/ ٤٩). (هذه الآيات الكريمة) تشبه ما ورد فى ملخص العهد الجديد: "العميان يرون، ويسير المشلولون ويشفى مرضى البرص، ويسمع الصم، وتصحوا الأموات، ويتلى الإنجيل على الفقراء" (لوقا ٧/ ٢٢).

وأخيرا تذكر قدرة عيسى على التنبوء بالغيب[١٣١]، وقد ورد ذلك فى سياق مختلف فى إنجيل يوحنا (١/ ٤٨). ويعطينا صدر الدين تفسيراً مكملاً (للتفسير السابق) فيقول: "إن عيسى يرى ما ادخره الإنسان لهذه الحياة والحياة الأخرى" (القرآن ص ١٠٠).

إن إخلاص عيسى للتوراة (تمسكه بها)، وهو ما أصبح يهتم به فى علم العهد الجديد مرة أخرى ويتكرر التاكيد عليه وابرازه. وفى هذا الصدد فإن القرآن يعتبر عيسى مفسِّراً ميسِّراً للشريعة (التوراة) ولم يكن متزمتاً فى تفسيره لها. يأتى عيسى ليؤكد صحة ما انزل من قبله من التوراة، وفى ذات الوقت يحل بعض ما حرم على اليهود[١٣٢]، (آل عمران/٥٠). وفى آية ٦٣ (سورة الزخرف) يوجه عيسى حديثه لبنى إسرائيل ويقول: ".... قد جئتكم بالحكمة ولأُبيِّن لكم بعض الذى تختلفون فيه...". حينا يُذكر عيسى بصفته معلماً للحكمة، وهذا هو أيضاً ما يظهر مرة أخرى اليوم بوضوح فى أبحاث إى كيزيمان (E. Kaesemann). السورة ٣

(آل عمران) تذكر أنه عندما أحس عيسى الكفر من بنى إسرائيل توجه بالسؤال إلى أتباعه ليعرف مدى إخلاصهم له، فقال: ﴿ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (الآية/ ٥٢). ما جاء فى هذه الآيات يتوازى مع ما جاء عند بطرس وشهادة الأتباع فى الأناجيل. يسير عيسى على الطريق إلى الله. وهو ذاته التعبير عن هذه الطريق، أتباعه ينصرونه، ويوصفونه بأنهم أنصار الله، وهم بذلك يشبهون الأنصار فى المدينة، الذين نصروا الإسلام، إنهم كانوا مسلمين حقيقيين فى زمن عيسى بالمعنى العام أى الإسلام لله عند كل الشعوب والديانات. وتأتى الآيات ذات المغزى القوى فى سورة آل عمران (قال تعالى): ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ(٥٤)إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ...(٥٥)﴾. ويكتمل معنى هذه الآيات من خلال الآيات ١٥٧- ١٥٩ من السورة ٤ (النساء)، (قال تعالى): ﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا(١٥٧)بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا(١٥٨)وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا(١٥٩)﴾.

تتضمن هاتين السورتين (آل عمران والنساء) القول بأن اليهود لم يقتلوا عيسى ولم يصلبوه، بل صلبوا رجلاً آخر يشبهه، لقد رفعه الله إليه أو أخفاه عنهم فى مكان يظل فيه إلى أن يحين موعد عودته فى نهاية الزمان، ثم يتوفاه الله وبعد وفاته مباشرة، التى تعتبر علامة البعث لكل البشر، يبعث من جديد ويكون شاهدا للحق يوم الحساب. ويشير القرآن إلى اختفاء أم عيسى (مريم) أيضا. وهذا ما يفهم مما ورد فى سورة المائدة/ ١٧، وتذكر هذه الآية أن الله إذا أراد أن يهلك المسيح وأمه وكل من على الأرض فسوف يفعل ذلك، ويُفهم من هذه الآية أن عيسى وأمه لا يزالان على قيد الحياة[١٣٣].

لقد ذهب الغنوصيون إلى القول بأن أحداً آخر (غير عيسى) هو الذى صلب، ويذكر الغنوصى "بازيليدس" (Basilides) أن الذى صلب كان سيمون الكيرينى (Simon von Kyrene) الذى أُجبر على أن يحمل الصليب بدلاً عن عيسى (انظر مرقس ١٥/ ٢١). وهذا هو الذى صلب خطأً، لأنه أصبح يشبهه (يشبه عيسى) حتى أن الناس اعتقدوا أنه عيسى، بينما أصبح عيسى يشبه سيمون.

وثائق يوحنا (Johannessakten) تفرق بين جولجاتا (Golgatha)[١٣٤] من جانب وصليب من النور الإلهى من جانب آخر، وهو الذى يرمز إلى الكل (الكون ككل). فبينما تدور أحداث الصلب المتوهَّم ويتفرّق أتباع عيسى يملؤهم الهلع. يظهر السيد (المسيح) ليوحنا فوق جبل الزيتون فى وسط كهف، ويشرح له سر ما يحدث، فيقول: "يا يوحنا! بالنسبة لعامة الناس فأنا أصلب الآن فى القدس أسفل هذا الجبل وأُدفع بالرماح لكننى أتحدث معك، فاسمع ما أقول، إنه أنا الذى أوحيت إليك أن تصعد إلى هذا الجبل، لأنه لابد لك أن تسمع ما لابد للصبى أن يأخذ عن المعلم، والإنسان من الله، ثم يكشف له. أن الصليب شىء واقعى فى حد ذاته وبالنسبة لنا. إنه الشىء الذى يضع كل شىء فى حدوده (الحقيقية)، إنه توافق (تناغم) الحكمة، الحكمة فى أعلى درجات التناغم (التناسق). توجد فى كل الأماكن إلى اليمين وإلى اليسار، سلطات، وقوى و ممالك، وعلى الجانب الآخر يوجد جان وطاقة، وأخطار، ومنغصات، وأعمال شيطانية، والشيطان، والجذور العميقة التى تنبت منها طبائع هذه الأشياء. إن هذا الصليب هو إذن الذى يثبّت الكون من خلال الكلمة، وهو الذى يكوّن الجانب الأسفل (السلبى) طبقاً لتكوينه الطبيعى، وهو الذى يحفظ كل شىء فى حدوده، وبعد كل هذا هو الذى جعل كل شىء ثابتاً فى مكانه، إلا أن هذا الصليب ليس هو الصليب المصنوع من الخشب الذى ستراه عندما تنزل من هنا إلى القدس. وبذات القدر لست أنا، الذى لا تراه الآن ولكنك تسمع صوته، الذى يصلب هناك فى القدس. أنا لست هذا الذى يعتقدون أنه أنا. بينما أنا فى الواقع لست هذا الذى كان يعتقده الكثير من الآخرين (ميشائيلين: كتب الأساطير فى العهد الجديد ص ٢٥٢ وما بعدها).

لقد أخطأت المسيحية الكنسية بشكل غير موضوعى تماماً فى تفسيرها للصليب، الذى هو فى الحقيقة مجرد معنى رمزى يكون فيه عيسى تعبيراً عن المحبة الإلهية للبشر والمرتبطة بنظرية طلب الغفران من خلال أضحية. فأهملت المعنى الرمزى للصليب بصفته تعبيراً عن كمال الإنسان الذى بشر به وهو لا يزال فى مرحلة التحقيق.

يتحدث أويجين روزينشتوك- هويسى (Eugen Rosenstock- Heussy) عن "صليب الحقيقة" (Kreuz der Wirklichkeit) والذى يسميه فى الوقت نفسه

صليب الفعالية (التأثير)، إنه (الصليب) رمز الكمال والتغير، إنه وجه معبر للكون يضم فى داخله كل ما هو موجود، العرض والطول والارتفاع والعمق (الأبعاد أو الاتجاهات الأربعة الرئيسية)... وبقدر ما تستوعبون منه يكون استيعابكم لعظمة الله (رسالة إيفيسر ٣/ ١٨ وما بعدهما).

إن المسيحية عندما تنظر (إلى العالم) نظرة أفقية فإنها لا تنظر فقط إلى أعلى بطريقة مثالية لترى ما ينبغى أن يكون عليه العالم، إنها تنظر إلى قطع الخشب المكون منها الصليب إلى أسفل فى ذات الوقت إلى عمق التغرُّب الوجودى الذى يهدد- المعنى الحقيقى لوجودنا، وإلى الموت والانتهائية وفقدان المعنى (الهدف من الحياة) الذى يعانى منه الإنسان. إنها تنظر عمودياً (أعلى وأسفل) ليس فقط حيث الأصول والبدايات لما استمتع به العالم فى الماضى، بل تنظر أيضاً إلى المستقبل المرتقب للعالم وتبقى أثناء ذلك واعية بأن الأبعاد الأربعة للعالم (الاتجاهات الأربعة) تتمركز فى وسط الصليب، وهذا يعنى أنها (الاتجاهات الأربعة) لابد أن تُحمل أيضاً فى هذا المكان وهذا الزمان، فيستخلص المرء من الارتفاع ما يرفع معنوياته ويرقى بروحه، ومن العمق معين لا ينضب (ممتلئ دائما) ومن البدايات استشرافات وتطورات، ومن المستقبل تفيض الإمكانات، ويكون هذا كله بمثابة استغراق كامل فى عظمة الله هبط علينا (من السماء) فى صورة الأبعاد الأربعة للصليب الذى لا يستبعد واقعا ولا أى وجه من وجوه العالم، ولا يستعبدنا نحن البشر إن العالم لا يمكن أن يعتبر وعاءً ثابتاً (جامداً) بل هو شيء يدفعنا للتطور فى كل الاتجاهات الأربعة(١٣٥).

يعترض القرآن على فهم الصليب بشكل يتجاهل دلالة التكاملية الأخروية (الغيبية). لقد كادت المسيحية أن تفقد الرؤية الصحيحة التى تتضمن تعبيراً رمزياً حقيقياً للصليب (بصفته رباعى الأبعاد وأنه يعبر عن الواقع الكامل). (على العكس من ذلك) فإن محمداً (القرآن) ينظر إلى شخصية عيسى نظرة أخروية تماماً. الجانب الأخروى لعيسى يمثل المرحلة الثانية من حياته. أيضا فى الإسلام يمكن للإنسان أن ينادى (ربه بعبارة "يا الله كن معنا!" (مارانانا، الرسالة الكورنتية الأولى ١٦/ ٢٢).

إن ما يأتى (بناءً على النداء) هو الجانب الأخروى، الجديد، ويعنى ذلك فى الوقت نفسه كل الإنسان. وتمثل هذه الكلية (كلية الإنسان) حسب الفهم الإسلامى، إن عيسى سوف يتزوج بعد نزوله فى آخر الزمان، ونجد لهذا التصور تصوراً مشابهاً فى أخبار القيامة ١٩/ ٧، حيث جاء ذكر حفل زفاف الحمل. ويندرج تحت هذا الوجه الكلى (ما ذكر عن) اختفاء مريم. إن الله قد أظهر فكرة ميلاد الإنسان الجديد فى الحضور الإلهى الدائم من خلال عيسى وأمّه. وقد انجلى بذلك المعنى الحقيقى للفعل الإلهى.

إن عيسى "مَثَل" بمعنى مثال ومثل أعلى (سورة "الزخرف"/ ٥٩). وهو إحدى علامات الساعة، ولقد جعله الله وكذلك أمّه آية (سورة "المؤمنون"/ ٥٠). يعرض المفسرون المسلمون صَلْب أحد الرجال بدلاً عن عيسى (شبه لهم) على النحو التالى: يذكر البيضاوى فى تفسيره أن رجلاً كان ينافق عيسى (بادعائه أن أحد أنصاره) ثم اختفى هذا الرجل ليبلغ السلطات (عن مكان وجوده) لذلك أسقط الله على هذا الرجل شبه عيسى، وكانت النتيجة أن السلطات قامت بالقبض على هذا الرجل (ظنا منهم أنه عيسى) وصلبوه وأثناء الصلب تشكك بعض اليهود فى أن يكون المصلوب هو عيسى، فقال بعضهم: إن كان هذا (المصلوب) هو عيسى فأين صاحبنا (الذى أرشدهم إلى مكان عيسى)؟ والبعض الآخر قال: إن الوجه هو وجه عيسى أما الجسم فهو جسم صاحبنا. وذهب البعض إلى القول: بأن الطبيعة الإنسانية فى عيسى هى التى صلبت أما الطبيعة الإلهية فقد رفعت إلى السماء (انظر هلموت جيتيه: القرآن وتفسير القرآن ص ١٧٤ وما بعدها)[١٣٦].

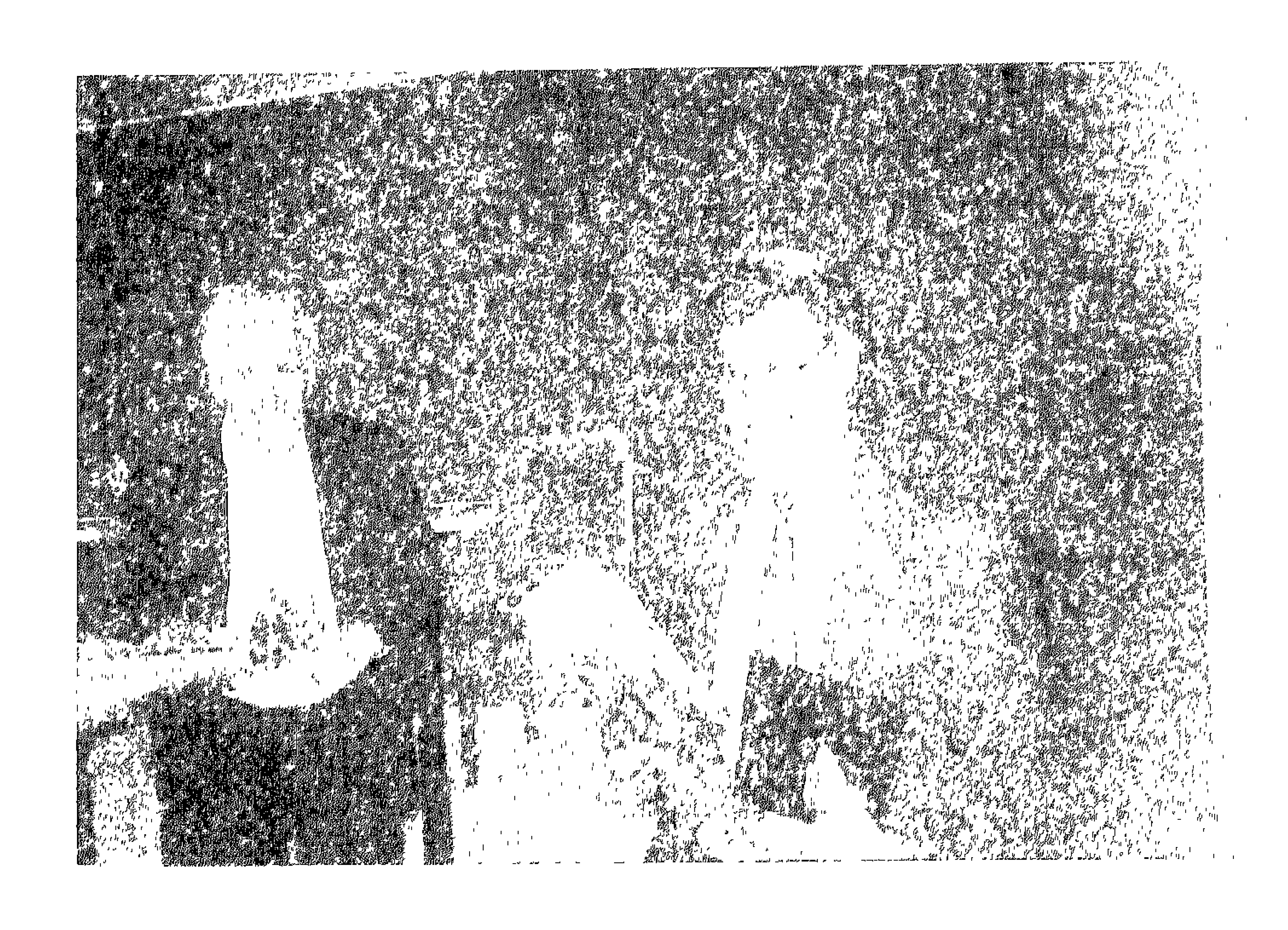
وحتى يفهم أحدنا موقف القرآن لابد من ملاحظة أنه (أى القرآن) يمد خطاً يمتد من مرقس إلى يوحنا[١٣٧] حيث نجد أن نشيد المحنة (محنة الصلب) بصفتها حقيقة يضعف باضطراد. فينتقل من صراخ بلا كلمات (أنين) يحتمل أن يكون مصاحباً لموت عيسى، عبر (قول عيسى) يا الإلهى! يا الإلهى! لماذا تركتنى؟ عند مرقس، إلى ما ورد عند لوقا من كلمات الصليب الهادئة (السلام الصامت)، إلى ما ورد فى إنجيل يوحنا حيث لم يتهاوى عيسى (يقع) تحت الصليب (أثناء حملة والسير به). بل يمكننا أن نقول، أنه كان يحمله (الصليب) باعتزاز المنتصر، وحيث توصف محنة الصلب بأنها رفع وتمجيد (لعيسى) وحيث يقول عيسى،

رسول الله حسب تعبير يوحنا "لقد اكتمل"، أى أن رسالته قد تمت واكتملت. ويختفى تألم عيسى فى إنجيل يوحنا إلى درجة أن (الباحث) كيزيمان (Kaesemann) يذهب إلى القول: " إن الذى يسير على الأرض غريباً، بمعنى أنه أرسل من الأب (الله) وكان يسير إلى الموت غير منكسر بل فرحاً لانه سوف يذهب إلى مملكة الحرية، قد أتم ببساطة رسالته، وهذا ما تضمنته كلمته الأخيرة وهو على الصليب" (انظر، عيسى وأمنيته الأخيرة، ص ٤٨ وما بعدها). ويمكننا أن نشبه ذلك بأننا ننتقل من مكان إلى مكان. لقد وضع محمد عيسى فى دائرة الرسل (رسل الله)، وأن الله ينجى رسله مما يحيكه لهم أعداؤهم ويوقع الماكرين فى مصيدة مكرهم. إن الحس القرآنى يعبِّر بذلك فى ذات الوقت عن أن الإنسان الجديد الذى ظهر فى هيئة المسيح عيسى لا يمكن أن يقضى عليه أحد، ولذلك رفعه الله إليه لأن تمام التاريخ (الإنسانى فى الأرض) مرتبط بمستقبله (حياته أى حياة عيسى المستقبلية).

لعلنا نذكر هنا التطورات اللاحقة على التصور الإسلامى لنهاية العالم (يوم القيامة) والتى تتخطى التصور القرآنى. فالعالم يسير بلا توقف باتجاه نهايته وأوضاع الأرض تسوء باطّراد، ثم يأتى المهدى، الذى هداه الله، ويأتى معه عصر ذهبى، ومع نهاية هذا العصر المتوسط بين عصرين والذى يمكن مقارنته بما ذكر عن المملكة المسيحية التى سوف تعيش ألف عام فى أخبار يوم القيامة٢٠/ ٤. بعد ذلك يظهر الدجال الذى سوف يقضى عليه عيسى بعد نزوله إلى الأرض مرة أخرى، وسوف يُقتل عيسى الدجالَ، ثم يتزوج عيسى ثم ينشر الإسلام ويتوفى بعد أربعين عاماً فى المدينة ثم ينفخ الملك إسرافيل فى الصور ليبدأ يوم الحساب (البعث).

جاء فى كتاب عيزرا اليهودى رقم ٤ أن المسيح سيموت فى نهاية عصر المملكة المسيحية وستموت بعد كل الإنسانية، ثم بعد أسبوع من الصمت العميق يبدأ يوم الحساب (عيزرا رقم ٤ الإصحاح ٧/ ٢٨ وما بعدهما).

يرفض القرآن التثليث وما ارتبط به من تأليه لعيسى وسوف يأتى شرح كل ما يتعلق بهذا الموضوع فى الباب التالى.



المؤلف والمترجم يحملان باقات الزهور التي أهداها لهما الجمهور بعد انتهاء الحوار بينهما بتطابق وجهتي نظرهما حول الرسالة الخاتمة (الإسلام).

الفصل السابع

خاتم الأنبياء

بعد أن وصل محمد إلى المدينة بفترة قصيرة كتب وثيقة تعيد تنظيم الحياة فى المدينة وتتضمن هذه الوثيقة بأسلوب مبسط ما يلى:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذه وثيقة من محمد، نبى الله، حول العلاقة بين المهاجرين من مكة والأنصار بالمدينة، فهم أمة واحدة، ويختلفون عن الكفار وينصر المؤمنون بعضهم بعضاً بغض النظر عن اختلاف الأنساب والقبائل، إن نصر الله واحد، إن اليهود هم مواطنون مثلنا، ولهم حق المعونة والحماية إن ذمة الله واحدة، ولابد أن تكون العقود بينكم وبينهم قائمة على العدل والمساواة. ولليهود أن يحكموا بينهم حسب شريعة دينهم ويخضعون لرؤسائهم، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، إلهنا وإلههم واحد، وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم. وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن يترث حرام حرفها لأهل هذه الصحيفة، وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها. وليس لأحد دخل فى هذه الصحيفة أن يخرج عنها، إن الله يمقت من يخون عهده بارك الله هذه الصحيفة أن الله ينصر الصالحين، ومحمد نبى الله[١٣٨] (انظر ابن اسحق سيرة النبى ص ١٠٩- ١١١).

لقد وجد محمد المدينة على حال متميزة جعلها تصبح وبحق مدينة النبى بالمعنى الحرفى وكانت هذه المدينة، واسمها القديم "يثرب" ضعيفة التنظيم إلى أبعد حد، ولم تكن مدينة عربية خالصة، بل كان يسكنها جماعات كبيرة من اليهود لها تأثير كبير فيها. لقد كان التأثير الدينى لليهود كبيراً جداً فى مقابل ديانات الجاهلية العربية. وقد كانت المدينة تفتقد صحيفة (دستوراً) يتناسب مع حالتها الخاصة. إن العلاقات الضعيفة بين القبائل والجماعات الأخرى كانت تزداد صعوبة كلما زاد عدد المهاجرين من مكة والذين كانوا يعانون من الاضطهاد الدينى فى مكة. أما أهل المدينة الذين أسلموا وسموا الأنصار أو أنصار الله واستقبلوا المهاجرين، فقد تركوا ديانات الشرك العربية القديمة. وكان من الضرورى أن تظهر شخصية قيادية تعيد تنظيم الحياة فى المدينة. وكان وفد من المدينة قد طلب من محمد

(ﷺ) أن يأتى إلى المدينة ليقيم فيها. وفى عام ٦٢٢ لحق محمد بالمهاجرين الذين سبقوه إلى المدينة. إن عام هجرة النبى لجدير بالفعل أن يكون بداية لتحول حساب التاريخ الإسلامى (التقويم السنوى). لقد طور الإسلام نظاماً اجتماعياً دينياً وسياسياً خاصاً به فى المدينة صاغ الأمة الإسلامية.

ليس من واجبنا هنا أن نتناول بالتفصيل الحروب (النزاعات) التى دارت فى المدينة بين محمد و القرشيين. ولم يكن أمام محمد مفر من المواجهة مع القريشيين دفاعاً عن النفس، لأن القرشيين كانوا قد خشوا أن تؤثر الوحدة الاجتماعية بالمدينة على مصالحهم الاقتصادية والدينية بها. وبسبب توحيد محمد للسلطتين الدينية والسياسية، فكان نبيا وقائداً فى ذات الوقت، فقد واجه محمد نقدا شديداً خاصة من جانب النصارى. إن النقاد (المسيحيين) قد تجاهلوا عمداً أن المسيحية، التى تدعى أنها محبة للسلام، قد أسلمت نفسها لقبضة السلطة، إضافة إلى ذلك وفى دائرة الكنيسة اللوترية فقد اخترعت نظرية خاصة تسمى نظرية المملكتين (مملكة الأرض ومملكة السماء). ومن قبل فقد طورت مسيحية العصور الوسطى نظرية تفرق بها بين القيصرية والبابوية وتحدثت بطريقة مليئة بالنفاق عن الذراع الأرضى للكنيسة (أى الملك والسلطة).

لقد سمح الوحى لمحمد أن يقاتل (بقوله تعالى): ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ(٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ(٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ(٤٠)﴾(سورة الحج/ ٣٨- ٤٠).

ويقول صدر الدين فى هذا الصدد: هنا يكم أحد أهم تعاليم الإسلام فالمسلم غير مطالب فقط بالتضحية بنفسه من أجل حماية المساجد وطرد المعتدين عليها فقط، بل أيضا وبنفس القدر من أجل حماية الكنائس والمعابد وصوامع الرهبان التى تخص غير المسلمين، أى من أجل الحرية الدينية بشكل عام. فإن الإسلام يأمر باحترام حرية الاعتقاد، وهذا يتضح فى (قوله تعالى) ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (سورة ٢ "البقرة"/ ٢٥٦). وبذلك فإن التسامح الإسلامى ليس سلبياً بل عملياً

إيجابيا" (تفسير القرآن ص ٥٥٧).

ويؤكد صدر الدين فى ذات الموضع أن مثل هذا التسامح العملى الإيجابى لا يوجد فى العهد القديم والجديد.

لقد كان الدستور الأول للمدينة (صحيفة المدينة) يعنى تأسيس دولة تتصف بالتسامح الوعى والتوحيدى، تسامح يرافقه فى ذات الوقت سمو العلاقات الدينية. إن القرآن فى جوهره رسالة توحيد دينى. إن التسامح ينبع مباشرة من الصفة الأساسية للرسالة القرآنية. "لا إكراه فى الدين" (سورة ٢/ ٢٥٦). الله وحده هو الذى يحرك القلوب (يقلبها). وبالنسبة للعلاقة بين الديانات يأتى القول بأن الله قد أرسل فى كل أمة رسولا. والجدال مع أهل الكتاب، أى أتباع ديانات الوحى (التوحيد)، لا يكون إلا بالتى هى أحسن. ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (سورة العنكبوت (٢٩)/ ٤٦).

وفى سورة "المائدة" الآية ٤٨ (يقول تعالى): ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

وبهذا فإن الفكرة الأساسية التى عرضها ليسينج (Lessing) فى "أسطورة الخاتم" (die Ringparabel) قد سبق القرآن إلى ذكرها. حيث يتسابق الكل إلى حبه الخالى من الشبهات.

"يسعى الكل إلى أن تكون القوة السحرية للحجر فى خاتمة كل يوم إلا أن هذه القوة لا تأتى إلا بالتلطف والتآلف القلبى وبالأعمال الطيبة، بالتسليم الحقيقى الكامل لله بالتعاون وإذا ظهرت القوى (السحرية) للأحجار فى أطفال أطفالكم فسوف أدعوكم بعد أكثر من ألف عام مرة أخرى أمام هذا المقعد وسوف يجلس على هذا المقعد رجلاً أكثر منى حكمة وسوف يتكلم".

(ناتان الحكيم الفصل الثالث المشهد السابع)

ويعلق صدر الدين على تفسير الآية ٤٨ من سورة (المائدة) بما يلى:

تفرقت الإنسانية على مجموعات ومجتمعات مختلفة (شعوب وقبائل)، وكانت أحوالهــا وضــروراتها ومســتوياتها الفكــرية مختلفة (أيضا). كلها كانت تتنادى بتشــريعات تناسب مع ظروفها الحياتية، ودرجة تطورها الفكرى (الروحى)، هكذا نشــأت التشــريعات الدينية المختلفة، إلا أن الدين الحقيقى يظل كما هو على حاله، جذوره هى الإحساس بالارتباط بالله (إرادة الله) تلك الإرادة الإلهية التى يسلم الإنسان نفسه بكاملها إليها، ومن أجل المحبة للإنسانية يفعل الإنسان أقصى ما فى وسعه من خدمــات، ولكونها أثراً من آثار الله، يحبها الإنسان من كل أعماقه (فتفسير القرآن ص ١٩٧).

يتضمن الموقف التوحيدى المبدئى فى القرآن تصحيحاً لمعنى التبشير (الدعوة) والذى لا يمكن للعالم المسيحى أن يتمادى فى تجاهله. وتتضمن رسالة القرآن: المطالبة بالاعتقاد (الإيمان) والحوار وتطوير مفهوم الوحى. إن الله لم يتجلَّ للناس فقط فى الكتاب المقدس.

إن موقف محمد التوحيدى، الدينى يرجع بلا شك إلى أن محمداً كان فى البداية يعتبر نفسه النبى الذى أرسله الله للعرب. هذا الفهم كان يتضمن منذ البداية وحدة الوحى (الإلهى) كما رأينا. لهذا السبب كانت محاولته توحيد اليهود والمسلمين فى أمة واحدة. لقد بدأت العلاقة (المحاولة) أولاً مع اليهود فى المدينة إلا أنها فى ذات الوقت لم تستبعد المسيحيين مبدئياً من محاولة الارتباط معهم بالعلاقة نفسها. لقد فشلت هذه المحاولة بسبب رفض اليهود لها وقد تبعها فى مرحلة لاحقة رفض المسيحيين أيضا لها (قال تعالى): ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ﴾ (البقرة (٢)/ ٩١).

لــم يغيِّر محمد (رغم ذلك) من موقفه التوحيدى الأساسى (لم ييأس). وكمبدأ أساســى بالنسبة للإسلام ظل لأهل الكتاب حق العيش مع المسلمين فى سلام وحقهم فى الوجــود ككيــان مستقل داخل الأمة الإسلامية. إن الموقف الرافض من جانب

اليهــود والمســيحيين دفع محمد إلى الأمام فقد ازدادت قناعة النبى العربى بتعاليم رسالته. وقد أدى عدم استعداد اليهود والنصارى للدخول فى الحوار مع الإسلام أن أصبح الإسلام دينا عالمياً ولم يعد محمد مرسلاً للعرب فقط بل أصبح النبى الأخير الخاتم (خاتم الأنبياء) كما أنزل عليه فى سورة "الأحزاب" الآية ٤٠).

إذا كــان محمد آخر الأنبياء فإن هذا يعنى أن القرآن هو آخر الوحى (خاتم الــوحى) إن الوحى القرآنى هو دفعة مؤسّسة ودافعة للتاريخ، حسب تعبير ليسنج، هــذه الدفعة هى التى أعطاها الله للإنسانية. وانطلاقاً من هذه الدفعة بدأت الإنسانية تــتطور وتســتقل شــيئاً فشيئاً مستخدمة العقل. إن القرآن هو فى ذات الوقت آخر الكــتب الســماوية القديمة وأول الكتب السماوية الحديثة. وفى هذه المناسبة لابد أن نــتذكر الدفعة التاريخية التى قدمها الإسلام المؤسَّس على القرآن إلى الغرب ليبنى (الغرب) وعيه الحديث.

ويرتــبط القــول بــ"خاتم الأنبياء" بما ورد فى سورة "الصف" الآية رقم ٦ حول بشارة عيسى (عليه السلام) حيث جاء (قوله تعالى): ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْــرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْــدِي اسْــمُهُ أَحْمَدُ﴾. وحتى نفهم هذا القول لابد لنا أن نعرف أن "أحمد" تتفق فى المعــنى تمامــاً مــع "محمـــد"، أى الإنسان الذى يحمده الناس ويرضونه. هو إذن (محمــد) الــذى ذكره عيسى باسم "أحمد"، إلا أن كلمة "أحمد" اعتبرت تبشيراً بما يســمى "المُوَاســي أو المُعضّد" (باراكليت)، الذى حسب ما روى يوحنا عند خطبة الوداع لعيسى أنه سوف يأتى من بعده.

إن كلمة "باراكيتوس" اليونانية تصعب ترجمتها إذا أراد الإنسان أن يعبر عن المعنى الذى أراد أن ينقله يوحنا عن عيسى فى بشارته. ويمكن ترجمة هذه الكلمة بــ مُدافِع، مُسانِد، مُواسِي. والأفضل أن يأخذ الإنسان هذه الكلمة كما هى (فى اليونانية) ويحتفظ بمعناه الذى يتناسب مع مجمل ما جاء فى الإنجيل (إنجيل يوحنا).

إن المقصود بــ"باراكليت" هو رسول ثان لاحق على عيسى والذى سوف يكمل رسالته. ففى إنجيل يوحنا ١٤/ ١٦ يتحدث عيسى عن هذا الموضوع لأول

مرة (فيقول): "سوف أرجو الله أن يرسل إليكم "باراكليت" أخر". وفى يوحنا ١٦/ ٧ – ١٣: إنه خير لكم أن أذهب لأننى إذا لم أذهب لن يأتى إليكم الـ"باراكليت"، أما إذا ذهبت فسوف أرسله إليكم....وعندما يأتى إليكم سوف يرشدكم إلى الحقيقة الكاملة".

وحسب وجهة النظر الإسلامية فإن عيسى لم يبشر بـ"باراكليت" بل بـ"بيريكليتوس". وقد كانت كلتا الكلمتين متشابهة من حيث النطق آنذاك إلى درجة كبيرة وكلمة "بيريكليتوس" تتفق فى المعنى مع "أحمد" و"محمد" والتى تعنيا المحمود والممدوح. لذلك يذهب المسلمون إلى أن وضع كلمة "باراكليتوس" بدلاً من "بيريكليتوس" هو بمثابة تحريف لكلمات عيسى الحقيقية.

إن الأهم من تلك الافتراضات بالنسبة لنا (المسيحيين) أن ببحث عن إجابة عن السؤال عما إذا كانت شخصية عيسى فى العهد الجديد تحتاج إلى رسول لاحق، أى إلى وحى جديد، يكون من شأنه أن ينقل لنا الحقيقة الكاملة ويجعل منها قوة تاريخية. يفسر إنجيل يوحنا كلمة "باراكليت" بالروح القدس إلا أن هذا التفسير لم يلعب أى دور فى المسيحية الأولى أو فى أجزاء منها وإلا ما أمكن لنا تفسير (فهم) ما حدث فى القرن الثانى بعد الميلاد من ظهور النبى "مونتانوس"، وهو مجدد اعتبرته الكنيسة الأم زنديقا، وإدعاؤه أنه هو "باراكليت" أى أنه يحمل روح نهاية الزمن والنبوة (بمعنى أنه آخر الأنبياء). وهناك شخصية باراكليتية أخرى ظهرت فى المحيط المسيحى وادعت أنها تعبر عن اكتمال رسالة عيسى، وهى شخصية "مانى" (٢١٦– ٢٧٧م)، وهو مؤسس الديانة العالمية المعروفة باسم المانوية، ويتفق هذا تماماً مع الروح (طريقة التفكير) الشرقية التى تميل إلى حيث تتصور الأمور الروحية متحققة فى شخصية إنسانية. ومثال ذلك فى القرآن أن جبريل يسمى أيضا بالروح.

إن تفسير كلمة "باراكليت" على أنها تدل على شخص حقيقى هو الذى أدى إلى التصور الأول (فى المسيحية) وهكذا فإن الاتهام الإسلامى (للمسيحية بالتحريف يفهم على أنه تحويل غير موضوعى للكلمة التى قالها عيسى من التعبير عن إنسان إلى التعبير عن روح (الروح القدس).

إن المقصود بـ"باراكليت" حسب التفسير الكنسى هو الروح القدس، الروح المسيحية المشتركة وهى فى ذات الوقت روح المسيح. هذه الروح وضعت بطريقة قسرية مقابلاً لروح العالم فتحت آلام الروح القدس هاجر المسيحيون من العالم ووجدوا وطنا جديداً فى الجماعة المسيحية، أى الكنيسة، وتنفصل الجماعة المسيحية عن الجماعة الشعبية إلى مملكتين. إلا أن مملكة الله لابد أن تأتى (تتحقق) فى العالم وتغيره. قال "الباحث" الفريد لويزى (Alfred Loisy): "لقد بشر عيسى المسيح بمملكة الله فجاءت "الكنيسة". هنا ظهرت مشكلة يبدو أنها لم تحل حتى الآن، وتتمثل فى أنه خلال ألفى عام تقريباً من تاريخ كنيسة قد حدثت علمنة متطرفة للعالم (للحياة). إن مملكة الله ليست الكنيسة وعالم، بل هى إلغاء للكنيسة والعالم داخل المملكة.

فى مقابل اختفاء واجتماع روح الله فى المجتمع المسيحى والذى يشكل تركيزاً عظيماً بقول (الفيلسوف) هيجل فى كتابه فلسفة التاريخ: "إن روح الله تعيش فى الجماعة (المجتمع). إنه هو الروح الباطنية المحركة، لكنه فى العالم ينبغى أن تحقق الروح فى مادة لم تصبح بعد مناسبة له. على الجانب الدينى نرى غالبا التحول، فنرى الإنسان يكدح طوال حياته ويبددها وبكل ما يملك من قوى ومعاناة فى أمور الحياة ويكافح وينجح ثم فجأة يلقى بذلك خلف ظهره ويتفرغ للتنسك (الترهبن). إلا أن أمور الحياة لا يمكن إلقاؤها كلها خلف الظهر، فبعضها يظل ينتظر الاكتمال، ثم يظهر بعد ذلك أن الروح تكمن فيما كان يقاومه (يرفضه) ثم يكتشف أن نهاية كفاحه ونجاحاته تكمن فى أن كفاحه الدنيوى كان عملاً روحياً". (هيجل، فلسفة التاريخ، ص ٤٥٠).

إن قول عيسى الذى ورد فى إنجيل يوحنا: "إن مملكتى ليست فى هذا العالم (يوحنا ١٨/ ٣٦) لا يمكن أن تكون الكلمة الأخيرة لأنه تحت سيادة الروح المسيحية وجد كل من الكنيسة والعالم جنباً إلى جنب، إلا أن وجود الكنيسة والعالم لا يمكن أن يكون كل شىء (تمام كل شىء)، لأن المطلوب أن تصبح الحياة الواقعية (المادية) عملاً روحياً فى ذات الوقت.

إن أول إنسان أدراك أهمية هذا الأمر بفعالية تاريخية وبكونها موضوعاً

للوحى الأخير كان محمداً، وتمثلت مهمة هذه فى بناء أمة إسلامية. وكانت هذه الأمة فى صورتها الأولى واقعية (الإسلام هو دين عامة الناس)، وهذا يعنى أنها لم تكن دولة كنيسة، وكانت شريعتها ونظام حياتها مؤسسين على قوانين عقلانية بشكل شبه كامل إلا أنها فى ذات الوقت تتحقق كلية من خلال الاستسلام التام لإرادة الله متمثلة فى القرب الفعلى من الله. فمن خلال تأسيس الأمة الإسلامية التى كانت ومنذ البداية تضم كل المؤمنين بالله فى مختلف الديانات، لم يكتف محمد بتبنى بشارة عيسى بقدوم مملكة الله بل حققها تاريخياً من خلال نظرية فكرية للأمة والتى نبعث منها إرهاصات العصر الحديث.

إن الإنسان ليتوق دائماً لرؤية كمال التاريخ الإنسانى. حيث تتحقق ذاته مستقلة ومستسلمة لإرادة الله فى الوقت نفسه. لقد كان محمد أوّل من أعطى (الإنسان) دفعة التطور فى هذا الاتجاه من خلال روح وحى الرسالة القرآنية.

إن تصور إثبات وأحقية وإتمام الرسالة المسيحية يتحقق كذلك من خلال الإيمان بأن محمداً، وليس عيسى، هو تمام التاريخ (تاريخ الرسل) إلى يوم القيامة. فى نهاية الزمن سوف يعود عيسى ليحقق الإسلام العالمى أى مملكة الله على الأرض.

من وجهة النظر الغربية كنا نرى فى محمد والأمة الإسلامية، بداية تعبير عن دفعات روحانية وسياسية متجددة كانت تأتى إلى العالم المسيحى، ومنذ الحروب الصليبية وما رافقها من احتكاك بين الإسلام والفرنسيكان المتطرفين ظهر السؤال عن مملكة الله الروحية الثالثة. التى فسرها المصلح البينيدكتى "يؤاخيم فون فيوراً" (Joachim von Fiora) على أنها نبوة (ويمكن فهم هذه العبارة بمعنى أنه "تنبأ" بها). يأخذ ليسنح هذه الفكرة حيث يجعل "مملكة الروح" تأتى بعد "مملكة الأب الأولى" (العهد القديم) و"مملكة الابن" وهى "الثانية" (العهد الجديد) حيث يتحقق كمال التاريخ الإنسانى (فى "مملكة الروح"، وهى "المملكة الثالثة").

إن الأفكار التاريخية لكل من فيشته وشيلينج وهيجل وماركس تشكل محتوى برنامج ليسنج الذى يرجع فى النهاية إلى (فكر) الفرنسيسكان المتطرفين وإلى النبض الأساسى للقرآن. إن القرآن هو النموذج الأول وهو بهذا المعنى آخر

مراحل الوحى (الإلهى). إن كل الشخصيات ذات الأثر الفعال وكذلك كل الحركات (الإصلاحية) التى ظهرت فى العصر الحديث تحمل فى ثناياها آثاراً من الـــ "باراكليت" (الروح، الابن).

إن الفن الإسلامى، كما سبق أن أوضحت فى كتابى "الله الأكبر"، قد حاول التعبير تصويرياً (فنياً) عن القول "أحضروا الروح الأمين الذى تلقاه محمد" بطريقة لا مثيل لها من خلال تصوير حالة النور التى تحيط بجسم محمد وكأنها شعلة ذهبية(١٣٩) تتجه إلى أعلى ولكنها مع ذلك تضىء ما حولها، بينما يترك مكان وجه النبى خالياً، وكأنه يريد بذلك القول دون قصد بأن محمداً ليس إنساناً واحدا فحسب بل هو نموذج أوّلى (أصيل) ويمثل موضع حدث لم يكتمل بعد وكذلك يفهم من خلال أوجه عديدة وشخصيات وحركات قبل أن يتنحى الروح القدس (باراكليت) ذاته. وقبل أن يصل التاريخ إلى نهاية وسباقاته الأبدية، وهو قبل بذلك محتوى شكل الأبدية. ثم عندما يتنحى المسيح أيضا أمام الواحد، حسب تعبير بولوس: "ويكون الله هو كل شىء (كورينتية الأولى ١٥/ ٢٤- ٢٨) (ص ١٣٢) فسوف نكون جميعاً تحت لواء الإسلام الكونى (العالمى).

فى بداية هذا القرن أعيد اكتشاف خطبة عيسى الأصلية حول مملكة الله فى مجال اليثولوجيا (ج. فاى وأ. شفايتزر J. Wei, A Schweitzer) وبذلك ظهر اهتمام بالجانب التاريخى فى مقابل جانب النبوة لشخصية عيسى لم يوصف عيسى قط بأنه الله حقيقة فى العقيدة المسيحية الأولى ولا فى العقيدة التى تطورت عنها عند من كانوا يسمون باليهود المسيحيين. ويمكننا القول بكل تأكيد أن عيسى التاريخى (عيسى الإنسان) لم يكن ليقبل بتأليه شخصيته على الإطلاق. (فهو يقول لأحد محدثيه) "كيف تسنى لك أن تسمينى الجليل، لا جليل إلا الله" هذا ما ورد فى إنجيل مرقس (١٠/ ١٨).

كان عيسى هو الإنسان الحر والمستسلم لله كلية فى ذات الوقت، ولذلك فهو يعتبر النموذج الأول للإنسان الذى خُلق فى الزمان. وهذا الاستسلام الكامل لله هو الذى سماه محمد الإسلام. إن صور عيسى التى تظهره على أن الله فى صورة إنسان، والتى كان يعبر عنها اليهود المسيحيين بـــ"ابن الله"(١٤٠) لا علاقة لها أبداً

بتأليه عيسى. فإذا كان القرآن يذكر أن عيسى جاء "مصدقا لما بين يديه من التوراة" ومصححاً لما فيها (من تحريفات لاحقة، ويتحدث (القرآن) عن تحريف فى كتب أهل الكتاب فلابد للإنسان أن يعترف فى هذا الشأن بان صورة عيسى ورسالته قد أزيدت (أو عرضت بشكل مبالغ فيه) فى ثنايا النصوص المسيحية الجاهلية الموجودة فى الأناجيل الكبيرة. ولعل لهذا القول الأخير ما يبرره، إلا أنه لم تكن هناك ضرورة لتغطية (لإخفاء) صورة المسيح الحقيقية (التاريخية) فى أناجيل مرقس ومتى ولوقا ويوحنا. وبمعنى محدد فإننا، وعن طريق ما ورد فى القرآن حول عيسى نعود إلى (عقيدة) الجماعة المسيحية الأولى بشكل أعمق (أدق).

إن الروايات التى وجدت انعكاساً (تعبيراً) جديداً فى القرآن تتضمن أفكاراً سماوية هامة كان يؤمن بها (اليهود المسيحيون وأصحاب المعارف (الغنوصيون من اليهود المسيحيين)، والتى نبذتها الكنيسة المسيحية الجاهلية التى بدأت فى الظهور آنذاك. ففى القرآن يجرى روافد من القصص (القرآنى حول عيسى) من جديد، والتى تتضاءلت أو استبعدت أثناء جمع وتدوين العهدين القديم والجديد. وحتى إذا أردنا ألا نسمى ذلك تحريفاً للقصص فإنه من الثابت أن ما حدث يمكن أن يسمى تطويع وإخضاع الروايات لنظرة انحيازية، وهى التى صححها القرآن تبعاً لهذا الفهم، وأكملها بالوحى الجديد.

إنها لحقيقة أن أقوال عيسى وأقوال المسيحيين الأوائل لم تصل بشكل خال من النقص إلى العهد الجديد. إن القرآن هو التكملة (الحقيقية) للعهد الجديد، وهو (القرآن) يشير إلى القاعدة الداخلية (الباطنية) إلى الجزء الإنسانى غير المرئى من الروح وإلى كلمة الله التى تشخّصت، إلى عيسى.

إن العنصر اليهودى الموجود داخل الرسالة المسيحية هو الذى يظهر أهمية القرآن، إن اليهود المسيحيين الذين استبعدوا (من الأناجيل الكبيرة) يظهرون فى القرآن من جديد. بقول "أدولف شلَتْر (Adolf Schlalatter) فى كتابه "تاريخ المسيحية الأولى": بالنسبة للمسيحى لم يكن اليهودى سوى عدو. والروح اليونانية التى غضت النظر عن عمليات القتل التى قام بها كل من الجنرال تراجان وهادريان ضد اليهود واعتبرت ذلك قدراً مستحقاً لليهود المجرمين الحقيرين انتقلت

أيضا إلى الكنيسة. أيضاً رؤوسها (رؤساء الكنيسة) الذين عاشوا فى القيصرية مثل أوريجنيس وأويزيبيوس ظلوا جاهلين (متجاهلين) بما حدث (من تدمير) للقدس وكنيستها (الكنيسة اليهودية المسيحية) بشكل يثير العجب. وكذلك كانت معلوماتهم عن الوجود المستمر للمسيحية اليهودية ضحلة. لقد كانوا (المسيحيين اليهود) يُتهمون بالزندقة وطُردوا لأنهم لم يخضعوا للقانون الذى كان يحكم باقى المسيحيين. لم يتوقع أحد رؤساء كنيسة الدولة أن هذه المجموعة المسيحية التى كانوا يحتقرونها سوف يأتى لها اليوم الذى تهز فيه العالم وتحطم جزءاً كبيراً من الكنيسة التى بنوها(١٤١). جاء هذا اليوم عندما أحيا محمد ما كان عند اليهود المسيحيين من تراث ووحى إلهى، وتصور ليوم القيامة والحساب وأخلاقهم وقصصهم، نقل ذلك بصفته رسول الله يحمل رسالة جديدة (ص ٣٦٨). وطبقاً لتعاليم المسيحية الأولى وكذلك لما ورد فى إنجيل يوحنا نفسه لا يمكن وصف علاقة عيسى بالله بما يسمى بالتثليث الذاتى(١٤٢). وقد تراجع اللاهوات الحديث شيئاً فشيئاً عن هذا التصور. لأن الله فى ذاته لا يمكن إدراكه (معرفة ذاته تعالى)، وأصبحت تتحدث الآن عن ثلاثية الوحى. وهذا القول لا يعبر سوى عن أن علاقة الله بالإنسان قد تحققت فى عيسى الإنسان - أى أن عيسى هو تحقيق (أو الجانب المدرَك) لله - وأن روح الله هى المعرفة والقوة الموجودة بداخلنا، والتى تمكننا من معرفة أن الله يتعامل معنا عن طريق عيسى، وهو الذى يجعلنا فى حال نتمكن فيها من تحقيق محبة الله لنا، التى ننعم بها، فى أفعالنا.

إن القرآن ملىء بما يمكن أن يكون منطلقاً لثالوثية الوحى. فعيسى كلمة الله وروحه تمثلت فى شخص (إنسان)، فهو (عيسى) تحقيق لكلمة الله وروحه بصفته إنسان أخروى (غيبى). إن القرآن متشبع بصوت الروح التى تريد أن تصل إلينا وتشرح الصدر للاستسلام لله.

ولابد لنا فى الختام من العودة إلى القول أن الاعتقاد بأن محمداً هو موسى الثانى يلعب دوراً محورياً بالنسبة للإسلام، هذا الدور الذى يتعلق بما ورد ذكره حول "خاتم الرسل" وما بشر به عيسى أى الـ"باراكليت". ففى كتاب موسى الخامس ١٨/ ١٥ جاء مايلى: "نبى مثلى سوف يخرجه الرب، إلهك من بين

إخوتك، فلابد أن تتبعوه". ويرى الإسلام فى هذه العبارة التى قالها موسى لبنى إسرائيل إشارة إلى محمد لأن النبى المنتظر سوف يخرج "من بين إخوتك" والأخ بالمعنى العام (الموسَّع) بالنسبة لإسرائيل هو إسماعيل، جد العرب، هذا يعنى أن من بين العرب سوف يأتى النبى المنتظر الذى سوف يكون مثل موسى. من قبل حاول فى المسيحية أن تفسر القول بـ"موسى الثانى" النبى على أنه يخبر عن قدوم عيسى. ويشير إلى ذلك بوضوح تام ما ورد فى "الحلف الجديد". يأتى الإسلام هنا ليقول بأن عيسى لم يؤسس رابطة شعبية تمثل فى ذات الوقت مجتمعاً سياسياً عاماً مثلما فعل كل من موسى ومحمد. إذن لابد لنا هنا أن نكرر ما ذكرناه آنفا حول الأهمية الدينية التاريخية للأمة الإسلامية، فى هذا الموضع ينكشف سر يتمثل فى أننا نجد الشخصية المبشَّر بها وهى شخصية موسى الثانى مرة أخرى فى أناشيد عباد الله التى جاءت فى إشعيا (الإصحاحات ٤٢/ ١- ٩، ٤٩/ ١- ٦، ٥٠/ ٤- ١١، ٥٢/ ١٣- ٥٣). بوصف عبد الله فى موضع مرة بأنه هو الذى سوف يؤسس الرابطة الشعبية أو رابطة الإنسانية (إشعيا، ٤٢/ ٦).

ومرة أخرى بأنه عبد الله الذى يعانى من الصعاب (يتألم)، يأتى هذا الوصف بصفة خاصة فى إشعيا ٥٣. ويأتى فالوصف الأول (أى أنه سوف يؤسس الرابطة الشعبية أو الرابطة الإنسانية) وقد ورد فى القرآن. أما الوصف الثانى (أى العبد الذى يعانى ويتألم) فقد ورد فى الأناجيل المرتبة المتوافقة(١٤٣) التى تروى قصص المحنة مع تمهيد مفصل (انظر م. كيهلر). وكلا الشخصيتين (أى الشخصيتين التى تحمل كل منهما صفة مختلفة) يتبع كل منهما الآخر. ولهذا الأمر معنى عميق على ما يبدو إذا أراد محمد أن ينقذ عيسى من الصلب وأن يترك مع ذلك صورة الشخص المصلوب مسجلة للإنسانية فإن ذلك يعنى أنه يجعل من التتابع (تتابع الأنبياء) إتفاقاً (تعاضداً) تعاضد أخوين مستمداً من صورة أولية (مكونة من) موسى- عيسى- محمد.

حاشية المترجم

١- اتبع المؤلف منهج كثير من المستشرقين والمنصرين فى عرض أفكاره بطريقة تجذب انتباه قرائه فلا يصدمهم بفكر يعرف مسبقاً أنه على النقيض مما تعودوا عليه حتى لا يتوقفوا عن قراءة الكتاب وإصدار الإحكام الخاطئة على المؤلف بالتميز وعدم الموضوعية. فكما أن المستشرق التقليدى يبدأ بمدح للدين الإسلامى وبعض مواقف المسلمين بشكل عام سريع حتى يقتنع القارئ المسلم بموضوعية المؤلف إلا أنه يفاجأ بعد ذلك بأن المؤلف يدس له أحكاماً ونظريات خاطئة فى ثنايا صفحات الكتاب الداخلية.

وهنا يبدأ المؤلف بذكر ما يقول به أو يحسه غير المسلمين عندما يريدون قراءة القرآن ويصف مشاعرهم وصفاً. ثم يبدأ بعد ذلك فى عرض وجهة نظره هو والتى يقتنع هو بها شخصياً تمام الاقتناع ويبرهن على صحتها بطريقة علمية دقيقة تقطع حجة المخالفين.

٢- سورة القمر الآية ٩.

٣- الآية ١٠ من سورة القمر.

٤- الآية ١٥ من السورة نفسها. ونص هذه الآيات التى استشهد بها المؤلف هو قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ(٩)فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ(١٠)فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ(١١)وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ(١٢)وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ(١٣)تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ(١٤)وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ(١٥)﴾.

٥- قوله تعالى فى سورة نوح (آية ٧): ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾.

٦- الآية الكريمة رقم ٢٣ من سورة نوح، فى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾.

٧- وقال تعالى:﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾. الآية ٢٦.

٨- قال تعالى: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾. الآية ٢٧.

٩- أصحاب الرس انظر الآية ١٢ وسورة ق.

١٠- يقصد المؤلف الآية الكريمة فى قوله تعالى فى سورة ق: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ(١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ(١٣)وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ(١٤)﴾.

١١- قوله تعالى فى سورة الشعراء الآية ١١١:﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾.

١٢- الآية ١٢٠ من السورة نفسها.

١٣- قوله تعالى فى السورة نفسها: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ (١١٩).

١٤- الآية ١٢٠ من السورة نفسها.

١٥- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾ (الآية ٨٢ من سورة الصافات).

١٦- الآية الكريمة: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾. (الآية ٢٧ من سورة المؤمنون).

١٧- سورة هود آية ٣٨.

١٨- سورة هود آية ٤٢.

١٩- سورة هود آية ٤٣.

٢٠- سورة هود آية ٤٥.

٢١- سورة هود آية ٤٤.

٢٢- رقم الآية الصحيح هو ١ أى الآية الأولى من سورة العلق.

٢٣- يقصد هنا سورة البقرة وليس أول سورة أى الفاتحة.

٢٤- يقصد "القدر" وقد فهم المؤلف خطأً مطلع الفجر على أنه بداية شروق الشمس.

٢٥- سورة "الانشراح" ونلاحظ هنا فهما خاطئاً للمؤلف يختلف عما هو معروف لدينا فى تفسير هذه الآيات الكريمة ويتضح كذلك تأثر المؤلف بشروح بعض الصوفية فى مثل هذه المواضع.

٢٦- لعل المؤلف يقصد العلم الفطرى أو الفطرة السليمة. وقد يقصد العلم اللدنى الذى يضعه الله فى قلب إنسان دون بذل جهد من طرف الإنسان.

٢٧- نص الآية الكريمة: ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾.(الآية ٦٤).

٢٨- لعل المؤلف يقصد سفر التكوين وهو أول أسفار العهد القديم لأننى لم أجد الاسم المذكور بالكتاب بين أسفار العهد القديم.

٢٩- حاولت وضع ترجمة النص الألمانى فى لغة شعر عربية أما النص الألمانى فهو

"So hab ich endlich von dir erharrt
in allen Elementen Gottes Gegenwart".

٣٠- ليس بحسب عدد السور ولكن بحجمها وعدد الصفحات بالتقريب وهى تقع بالفعل فى نهاية النصف الأول تقريباً حسب عدد صفحات المصحف على اختلاف طبعاته.

٣١- محلل وطبيب نفسانى سويسرى معروف توفى فى مدينة زيوريخ فى ٦/٦/ ١٩٦١م.

٣٢- عنوان هذه القصة فى قصص الكتاب المقدس هى "النائمون السبعة" (die Siebenschlaeferlegende).

٣٣- سورة الكهف (١٨) الآيات ٧٩- ٨٢.

٣٤- الترجمة الألمانية خطأ ابتداءً من قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ منكُم...إلى أخر الآية، أما ورد فى الكتاب فيمكن ترجمته كما يلى: وما فيه لَه مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وهو كما نرى خطأً غير مقصود ويخالف الترجمة التى اعتمد عليها المؤلف وهى ترجمة Rudi Paret الذى أورد ترجمة صحيحة لمعانى الآية الكريمة كما هو مذكور فى متن الترجمة.

٣٥- هنا يلمس المؤلف موضوع الإعجاز اللغوى فى القرآن الكريم والذى كان موضع التحدى للكفار بأن يأتوا بسورة مثله.

٣٦- يحاول المؤلف هنا التعبير عن انطباعاته النفسية عن طريق استخدام صور يقصد منها تقريب القارئ مما يحسه فى داخله ولا يستطيع التعبير عنه بكلمات تقليدية فجاءت تعبيراته يكتنفها كثير من الغموض. وقد نتفق معه فى صحة هذا الأسلوب أو نختلف، إلا أنه يجب علينا محاولة فهم ما يحاول المؤلف التعبير عنه.

٣٧- لعله نقد غير مباشر لعقيدة التثليث فى المسيحية والتى يُعتقد هو بموجبها أن عيسى (عليه السلام)، وهو بهذا المفهوم حدث زمانى (تاريخى)، هو ذاته الإله اللازمانى والأزلى.

٣٨- كل بيانات المراجع الواردة بين قوسين تشير إلى المرجع الذى اقتبس منه المؤلف، وليست إضافة من المترجم أما الكلمات الواردة بين قوسين هلالين فهى محاولات لإيضاح المعنى السابق على القوس من المترجم.

٣٩- لعل المؤلف يقصد هنا الآية رقم ٧ من سورة الرعد (١٣)، بقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾.

صدق الله العظيم

٤٠- أى أنه لم يمنع آدم وحواء من أن يأكلا من هذه الشجرة.

٤١- نص الآيات الكريمة من سورة النجم نختلف فى بدانة أى فى الآية ١٩ والتى نصها: ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى(١٩) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى(٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى(٢١)﴾. ويلاحظ أن الترتيب القرآنى يختلف عن الترتيب الذى ذكره المؤلف فى السطور القليلة السابقة على ذكره لنص الآيات الكريمة. إلا أنه لم يقصد فى تلك السطور ذكرها مرتبة حسب الترتيب القرآنى الذى أورده فيما بعد صحيحاً.

٤٢- هذه الكلمة جاءت فى الأصل الألمانى بما يعنى نوعا من الطيور المائية التى تشبه الأوزة البيضاء.

43- Wilhem Schmidt; Der Ursprung der Gottesidee- (12 Bande, 1912-1955).

44- Paul Schwarzenau: Vom Totempfahl zum Kruzifix, Vergessene Voraussetzungen unseres Weltverstaendnisses- Dortmund- 1976.

45- Rudi Paret: Mohammed und der Koran. Stuttgart- 1972, s. 15.

٤٦- نص الآية الكريمة فى سورة يوسف (١٢): ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾.

47- Mircen Eliade: Das Heilige und das profane- vom Wesen des Religioesen- Hamburg- 1957.

48- W- Belz, Die Mythen des Koran, Der Schlussel zum Islam, Dusseldorf, 1980.

٤٩- بمعنى تصور الحياة الكامن فى باطن النفس البشرية منذ الأزل.

٥٠- يقصد المؤلف هنا مايسمى عند العامة الأحجبة والعمل والفُقَد وما شابه ذلك من أشياء تظن فيها العامة أن لها قوة سحرية نافعة أو ضارة.

٥١- أحد مجاميع النصوص المقدسة عند اليهود تسمى "الكابالا".

٥٢- يستخدم المؤلف هنا كلمة Personalen التى ترجمتها بـ "الحى" أو "المشخص" مقابلاً لكلمة Impersonalen والتى ترجمتها بـ "غير الحى" (الجماد) وتعنى غير المشخص بمعنى أنه ليس شخصاً أو كائنا حياً. ولا يقصد التشخيص بمعنى التمثيل أو بمعنى أنه مثل الإنسان وإنما يقصد المقابلة بين الحى الذى له صفات يتميز بها عن الجمادات.

٥٣- يبدو أن هذه المقولة جاءت على لسان أحد المتصوفة فى الإسلام.

٥٤- ليس المقصود هنا وزن الجسم بل وزن الكرامة والمقام.

٥٥- هو الابن الثالث لآدم وحواء حسب روايات الكتاب المقدس.

٥٦- نص الآية الكريمة هو: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾.

"صدق الله العظيم"

٥٧- كانت تطلق هذه النسبة على العبرانيين أيضاً.

٥٨- المقصود هنا هو علم التنجيم الممهد لعلم الفلك الحديث.

٥٩- ويسمى أيضا فيلون اليهودى ولد عام ٢٥ قبل الميلاد وتوفى عام ٥٠ بعد الميلاد.

٦٠- هنا يبدو واضحاً أن المؤلف يتبنى وجهة النظر السائدة عن معظم المستشرقين والتى تتناقض مع وجهة النظر الإسلامية، إلا أننا سوف نجده فى الفصول التالية وبصفة خاصة فى الفصل الأخير يؤكد على صدق نبوة

محمد (ﷺ) وكأنه هنا يعرض فقط لما يرد فى المؤلفات الغربية التى تبحث هذا الموضوع.

٦١- يعرض المؤلف هذا الحديث وكأنه كان أحد الأحلام التى كان يراها الرسول (ﷺ) فى منامه ولم يحدث ذلك على وجه الحقيقة. وهذا أيضاً مما يخالف التصور الإسلامى الغالب حول هذه المسألة.

٦٢- لم يذكر المؤلف الآيتين الكريمتين رقم (٨)، (٩) فى النص الألمانى وقد أوردتهما حرصاً على كمال المعنى.

٦٣- لم يذكر المؤلف الآيتين ٩، ١٠ من سورة الضحى وقد ذكرتها هنا فى الترجمة حرصاً على كمال المعنى. كما أن المؤلف لم يذكر مناسبة نزول هذه السورة التى واسى بها الله تعالى بنبيه الكريم بعد أن كذبة أهل الطائف وكان الأجدر بالمؤلف ذكر المناسبة.

٦٤- الآية التى يقصدها المؤلف هنا هى الآية رقم ٩٥ وليس ٩٦ من سورة النساء والتى جاء فيها قوله تعالى: ﴿لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

75- E. Dermenghem, Mohammed in Sebstzeugnis und Bilddokumenten, Hamburg, 1960.

٦٦- فى النص الألمانى كتب رقم الآية خطأ "٨" بينما هى رقم "٥" وفيها قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِؤُكَ فَلا تَنسَى﴾. والمرجع الذى آخذ عنه المؤلف هو:

Tor Andrae, Mohammed, sein Leben und sein Glaube, Hildesheim, 1977.

٦٧- يقصد المؤلف هنا التى بلغها جبريل لمحمد (ﷺ).

٦٨- فى النص الألمانى أشار المؤلف إلى الآية الأولى فقط وما أقتبسه المؤلف من القرآن الكريم هو آيتين الأولى والثانية من سورة المدثر.

٦٩- يقصد المؤلف هنا نظرية "مجرى العادة" التي يتبناها الأشاعرة وبعض المعتزلة المتأخرون، وكانت رداً على نظرية العلّية التى تبنها ابن تيمية فيما بعد وذهب إليها أوائل المعتزلة وأكثر الفلاسفة المسلمين.

٧٠- أحال المؤلف إلى الآية رقم ٣٨ فقط إلا أن ما ذكره فيما قبل يتطلب ذكر الآية التى تليها أيضاً ٣٩.

٧١- فضلت هنا الالتزام بترجمة النص المكتوب فى الكتاب مع استخدام بعض تعبيرات القرآن الكريم كلما وجدتها تعبر مباشرة عما تتضمنه الجملة التى أشرحها وقصدت من ذلك التنبيه إلى الآيات القرآنية التى اعتمدت عليها المؤلف وإن جاءت ترجمته فى بعض الأحيان غير دقيقة لذلك أنصح القارئ الكريم بالرجوع إلى نص هذه الآيات الكريمة فى المصحف.

٧٢- يقصد بذلك أن كل مايحلم به الرجل البدوى الذى يعيش حياة قاسية فى الصحراء أسقطه محمد على الجنة. وهنا يلاحظ أن المنطلق الأساسى عند هؤلاء القوم هو أن محمداً مؤلف القرآن ولم يكن وحياً من السماء.

٧٣- هذه محاولة لترجمة هذه الأبيات ولا أدعى أننى وفقت فى نقل صورها الجميلة إلى اللغة العربية فيما يشبه الشعر أو النثر العربى المقفى.

٧٤- هتان الكلمتان تعنيان فى اللغة اللاتينية النفسية مؤنثة ومذكرة.

75- G. Widengren, Iranische Geistes Welt, Baden- Baden, 1961.

٧٦- لعل المؤلف يقصد تاريخاً مفصلاً يذكر قصص الأنبياء مرتبة ترتيباً تاريخياً كما هو الحال تقريباً فى العهد القديم.

٧٧- يلاحظ هنا وفى بعض المواضع الأخرى أن المؤلف يستخدم تعبيرات المستشرقين واللاهوتيين المسيحيين واليهود والتى تتضمن أن محمداً هو الذى وضع الصياغة اللغوية للوحى على الأقل إن لم يكن هو واضع القرآن بجملته. أما الترجمة التى ذكرها للآيات المشار إليها فخطؤه فى تفسيرها لا يقل عن خطئه فى ترجمتها إلى الألمانية فالترجمة أضافت إلى الآية ما ليس فيها على الإطلاق لا معنى ولا لفظا. ولعله قد نقلها من إحدى الترجمات الخاطئة. أما الترجمة التى أعتمد عليها المؤلف فيما عدا ذلك وهى ترجمة

رودى بارت فتختلف تماماً عما نقله المؤلف فى هذا الموضع وإن كنت أميل إلى القول بأن هذا الخطأ يرجع إلى عدم إلمام المؤلف باللغة العربية وقراءته للأصل العربى وفهمه مهماً جيداً لأن المؤلف لم ينقل حتى الآن أية ترجمة خاطئة لمعانى الآيات الكريمة.

٧٨- تصور خاطئ للمؤلف مبنى على مقومات أكثر خطأً لم ترد سوى فى كتابات استشراقية أو تبشرية تفتقد الدليل العلمى والفهم السوى. وهو يناقض نفسه عندما يورد بعد ذلك مباشرة ترجمة لمعانى الآيات من ١٩- ٢٥ من سورة النجم ويبدو موقفه مذبذباً فى تعقيبه على هذه الآيات الكريمة.

٧٨- فيلسوف ألمانى ماركسى عرف بإنكاره للدين والنبوات بل وإنكاره لوجود الله، توفى فى عام ١٨٧٢م. Ludwig Feuerbach.

٧٩- Homeros شاعر يونانى نسبت إليه الإلياذة والأوديسية، والأغانى الهوميرية. عاش فى القرن ٩ ق. م.

٨٠- نص الآية قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾.

٨١- تخريج رقم الآية خطأ فى الكتاب هكذا /٢٥. والصحيح هو المبين فى الترجمة /٢٦.

٨٢- نص الآية الكريمة رقم ١٣، وليس ١٢ كما جاء فى الكتاب، قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾.

٨٣- نص الآية الكريمة قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ﴾.

٨٤- أسماء هذه المدن أخذها المؤلف عن روايات العهد القديم وما عرف بـ "الهجادا".

٨٥- الذراع يبلغ فى مصر ٠,٥٨ من المتر، والأستانبولى ٠,٦٦٥ من المتر، والذراع المعمارى حوال ٠,٧٥ من المتر، والذراع الحلبى ٠,٦٨ من المتر والذراع البلدى (البغدادى) حولى ٠,٨٠ من المتر.

٨٦- نص الآيات الكريمة من سورة الحاقة (٦٩) قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا

بريحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ[٦]سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ[٧]فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ[٨]﴾.

٨٧- رقم الآية فى الكتاب ١٢ وهو خطأ والمثبت هو الصحيح ١٣.

٨٨- قال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. (العنكبوت ٢٩/ ٢٩).

٨٩- روايات تعليمية مستوحاه من العهد القديم وهى من أحد مكونات الأدب التلمودى.

٩٠- نص الآية الكريمة، قال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾.

٩١- نص الآية الكريمة، قال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾.

٩٢- نص الآية الكريمة من سورة النمل. قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾.

٩٣- يقصد المؤلف طفولة موسى (عليه السلام).

٩٤- ورد هذا القول فى الآية رقم ١٩ من سورة القصص (٢٨). قال تعالى:﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾.

٩٥- ارجع إلى نص الآيات الكريمة التى اعتمد عليها المؤلف فى سورة طه (٢٠) الآيات من ٥٧- ٧٣، سورة الشعراء (٢٨) الآيات من ٢٦- ٥٠.

٩٦- ينسب هذا الكتاب وهو روايات العهد القديم إلى فتاة يهودية، كان أسمها "هاداسا" ثم سميت إيستر"، نجحت فى إحباط مؤامرة قام بها "هامان" وزير فرعون للقضاء على اليهود. وكانت إيستر آنذاك زوجة الملك الفارسى "أهاسفيروس". (انظر tv Lexikon, 5, s- 227).

٩٧- انظر سورة البقرة (٢)/ ٦٠.

٩٨- انظر سورة البقرة (٧٥)/ ٧٥.

٩٩- انظر سورة البقرة (٢)/ ٥٥- ٥٦.

١٠٠- انظر سورة البقرة (٢)/ ٥١.

١٠١- انظر سورة مريم (١٩)/ ٥٢.

١٠٢- انظر سورة الأعراف (٧)/ ١٤٨ و طه (٢٠)/ ٨٥- ٨٩.

١٠٣- الأعراف (٧)/ ١٤٣.

١٠٤- انظر سورة الأعراف(٧)/ ١٥٥- ١٥٧.

١٠٥- الآيتين التى تتضمن هذا المعنى هما (الآيتان ١٦١، ١٦٢ من سورة الأعراف).

١٠٦- شخصية ملك أشتهر بالغنى الشديد حتى أصبح يُضرب به المثل فى الغنى هزمه ملك الفرس كيروس الثانى واحتل بلاده عام ٥٤٦ ق.م. (الموسوعة الألمانية المختصرة dtv Lexikon).

١٠٧- انظر سورة القصص (٢٨)/ ٢٦- ٨١.

١٠٨- انظر سورة البقرة ٢٥٨/٢، الأنبياء ٦٩/٢١.

١٠٩- نقلت هنا نص الآية الكريمة لأنها تتفق تماماً مع ما ذكره المؤلف ولا تختلف عن الأصل القرآنى سوى فى ضمير الغائب الذى ذكره المؤلف بدلاً من ضمير المخاطب الذى ورد فى نص الآية الكريمة من سورة البقرة الآية رقم ٢٦٠.

١١٠- انظر سورة البقرة الآية رقم ١٢٤.

١١١- هذه الصياغة توحى فى ظاهرها بأن المؤلف يقصد أن الرسول (ﷺ) هو مؤلف القرآن، إلا أن أساليب التعبير فى اللغة الألمانية لا تحتم ذلك.

١١٢- المكان المقصود هنا هو مكة بلا شك ويرتبط ذلك ببناء الكعبة.

١١٣- المقصود هنا أبناء إسرائيل وأبناء إسماعيل ويرمز المقطع "بل" (EL) إلى النسبة إلى الله ويمكن مقابلتها بالأسماء العربية التى تنسب إلى قبل "عبد الله" الذى كان يعرفه العرب قبل الإسلام ومنهم والد النبى (ﷺ) الذى كان اسم "عبد الله".

١١٤- مارتن هايديجر فيلسوف ألمانى معاصر ولد فى ٢٦ / ٩/ ١٨٨٩ وكان يعمل أستاذا للفلسفة فى جامعة فرايبورج وكان تلميذاً للفليسوف الوجودى

هوسرل، توفى فى أواخر السبعينات من القرن العشرين وعرف بفلسفة الوجودية (الوجود و الزمان) والسؤال عن معنى الوجود وكان يتبنى وجودية أصولية.

١١٥- هذا الرأى الجائر يعد سقطه لأحد كبار الاستشراق المعاصر وهو رودى بارت صاحب أشهر ترجمة لمعانى القرآن الكريم باللغة الألمانية فى القرن العشرين والذى عرف بالموضوعية والشجاعة فى أكثر أبحاثه. وقد لمست بنفسى فيه كرم الخلق وتواضع العلماء أثناء دراسات العليا فى جامعة توبنجين فى منتصف السبعينات.

١١٦- النص الألمانى عبارة عن ترجمة حرة لمعنى الآيات الكريمة التى ذكرت نصها من القرآن الكريم ولم أتقيد بالترجمة الحرة التى أوردها المؤلف حتى لا يساء فهمها. (انظر الآيات الكريمة من سورة مريم (١٩)/ ٤- ٧).

١١٧- يقصد بهذه الملحوظة ما ورده الآية القرآنية الكريمة "لم نجعل له من قبل له سمياً".

١١٨- انظر الآيات الكريمة ١٢- ١٥ من سورة مريم (١٩).

١١٩- هو محمود بن عمر الزمخشرى، صاحب تفسير "الكشاف من حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل "وهو التفسير المعروف "بالكشاف" وقد توفى فى ٥٢٨هـ، وفى بعض كتب الـ جارك جار ذكر تاريخ وفاته ٥٣٨ وهو الأقرب إلى الصحة لأنه كان قد رثى ركن الدين محمود الملاحى بقصيدة رثاء والذى توفى عام ٥٣٦هـ. (انظر مجلة مجمع اللغة العربية - بدمشق مجلد ٥٧ جـ ٣، أغسطس ١٩٨٢ ص ٣٨٢، والكامل فى الإستقصاء لتقى الدين النجراتى- تحقيق السيد الشاهد- المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة- ١٤٢٠/ ١٩٩٩، ص ٧).

120- Helmut Gaetje: Koran und Koranexegese, Artemis verlag zuerich u. Stuttgart- 1971

121- Henneke- Schneemelcher, Neutestamentliche Apokryphen, 1, s. 307 F.

١٢٢- يستخدم المؤلف اسم محمد تعبيراً عما ورد فى القران دون أن يقتصر بذلك إدعاء أن محمداً قد ألف أو أضاف هذا القول من عنده إلى القرآن بل

بمعنى أن الوحي الذى نزل على محمد هو الذى تضمن انعكاساً أو أثرا لما ذكر فى الروايات السابقة عليه (انظر مقدمة المؤلف للترجمة العربية).

123- E. Jung/ M. L. von Franz, Die Graalslegende, S. 289 F. F.

124- Hanna Wolf, Jesus der Mann, Stuttgart, 1975, S, 163.

125- G. G. Jung, G W 9/ 1, S. 231.

١٢٦- ترجمت ما ورد فى الكتاب من مضمون الآيات الكريمة فى سورة مريم (الآيات ٢٤- ٣٠).

١٢٧- الحديث عن أحداث يوم القيامة الذى ورد فى إنجيل يوحنا فى العهد الجديد (Apokalypse).

١٢٨- انظر سورة آل عمران (٣)/ ٤٩، المائدة (٥)/ ١١٠.

١٢٩- الترجمة الحرفية هى تقريبا "إنسان الله الغيبى الجديد".

١٣٠- إنجيل يروى طفولة عيسى (عليه السلام) منسوب إلى أحد كتاب الأناجيل يسمى توماس وهو أحد الرسل الإثنى عشر، واتهم بالتشكيك، ذكره يوحنا فى إنجيله الاصحاح ٢٠ آية ٢٤ وما بعدهما.

١٣١- انظر الآيات ٤٩ من سورة آل عمران.

١٣٢- لم أذكر نص الآيات الكريمة فى الترجمة لأن المؤلف لم يورد كلام فى هذا الموضع على أنه ترجمة لمعانى هذه الآية الكريمة، ونص هذه الآية الكريمة هو قوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ﴾. (آل عمران (٣)/ ٥٠.

١٣٣- نص الآية الكريمة قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَآلُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (المائدة (٥)/ ٣٣ وما بعدهما).

١٣٤- المكان الذى صلب فيه المسيح حسب الروايات المسيحية (انظر متى ٢٧/ ٣٣ وما بعدهما).

١٣٥- نلاحظ هنا أن المؤلف يرفض اعتبار صلب المسيح شيئاً واقعياً حدث بالفعل وهو يؤكد ما ورد فى القرآن وما أشار إليه المؤلف فى هذه الفقرة

ونجد أنه يستشهد ببعض المواضع من العهد الجديد (إنجيل يوحنا ومرقس) على أن عيسى (عليه السلام) لم يصلب ولم يقتل ثم نلاحظ أيضا أن المؤلف بصفته مسيحياً عقلانياً يؤيد تفسير عقيدة الصلب والصليب تفسيراً رمزياً معنوياً ممعنا فى الروحانية والتجرد.

136- H. Gaetje, Koran und Koranexeges S. 174. F.

١٣٧- يقصد المؤلف أن ما ورد فى إنجيلى مرقس ويوحنا بخصوص صلب المسيحى يتوازى مع ما ورد فى القرآن بهذا الشأن.

١٣٨- فضلت ترجمة النص الألمانى الذى هو اختصار شديد لنص الصحيفة باللغة العربية الذى ذكره ابن اسحق فى سيرته وكذلك ابن كثير فى كتابة "البداية والنهاية" طبعة مكتبة المعارف بيروت- ١٩٦٦ جـ ٣ ص ٢٢٤/ ٢٢٥- وذلك مراعاة لأمانة الترجمة.

١٣٩- نلاحظ هنا تأثر المؤلف بالنص الشيعى الذى تظهر فيه صورة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بينما هذا التصوير محرم عند أهل السنة.

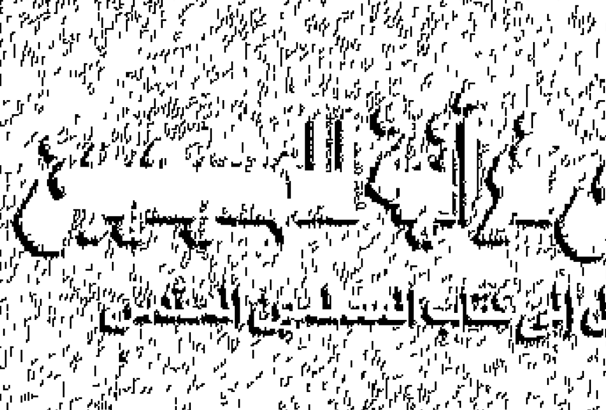
١٤٠- هذه التسمية تدل على المسيحية الأولى الأصلية التى سمعها وتبناها الجيل الأول من المسيحيين من أنصار عيسى (عليه السلام) ومن سار على دربهم لأنهم لم يعتبروا أنفسهم أتباع دين جديد بل أتباع المسيح الذى هو فى الأصل مصلح يهودى فسموا "باليهود المسيحيين" أو "المسيحيين الأوائل" أو "الجماعة الأولى".

١٤١- نلاحظ هنا أن المؤلف يستخدم كلمة "الكنيسية" ولم يستخدم كلمة المسيحية لوصف ما آل إليه الدين المسيحى فيما بعد أى بعد القضاء شبه التام على المسيحيين الأوائل أو ما يسموا باليهود المسيحيين.

١٤٢- أى ثلاثية الذات الإلهية فيما يعبرون عنه بـ"الأب والابن والروح القدس إله واحد".

١٤٣- هذه الصفة تطلق على الأناجيل المرتبة المتوافقة فيما بينها وهى أناجيل متى ومرقس ولوقا.

فهرس









هــذا الكتــاب

بجرأة نادرة وموضوعية متجردة من كل آثار الموروث الثقافى والانتماء العقدى غير المستند إلى العقل والمنطق يتناول المؤلف الأستاذ الدكتور باول شفارتزيناو – أستاذ الثيولوجيا البروتستنتية والعلوم الدينية بجامعة دورتموند – القرآن الكريم بالدراسة والتحليل مستقرئاً لنصوصه المقدسة مستكشفاً لإشاراته الخفية التى تربط بين أجزائه التى تبدو بلا روابط داخلية مكونا منها نسيجاً متكاملاً مترابطا.

ينتقل المؤلف بعد ذلك إلى الربط والمقارنة بين ما جاء فى النصوص القرآنية ومقابلاتها فى الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد وخاصة عند السابقين مثل نوح ولوط وإبراهيم وموسى وعيسى ثم محمد (ﷺ) ليصل إلى القطع بأن القرآن الكريم هو أول وآخر كتاب سماوى فى ذات الوقت، وأنه الصورة العربية لكلام الله غير المخلوق الثابت فى اللوح المحفوظ، وأن الإسلام هو ما عُبِّر عنه فى العهد القديم بمملكة الله الثالثة على الأرض، وأن محمداً (ﷺ)هو المشار إليه بـ"محمد" (Himda) فى إنجيل يوحنا الأصلى وأنه هو "موسى الثانى" الذى ذكر فى العهد القديم، ويصل إلى أن النبى محمد (ﷺ)هو خاتم الأنبياء، وأن القرآن الكريم هو العهد الثالث القائم بعد التوراة (العهد الأول) والإنجيل (العهد الجديد) ويدعو المؤلف اليهود والمسيحيين إلى الاعتراف بنبوة محمد (ﷺ)وأنه خاتم رسله وأن القرآن الكريم هو أول وآخر الكتب السماوية.

أثناء هذه الدراسة المتعمقة التى اعتمدت بشكل أساسى على الفلسفة والتحليل النفسى يردُّ المؤلف على الشبهات التى أثيرت ضد القرآن الكريم ويأخذ موقع المدافع عنه عن قناعة تامة وإيمان عميق بصحة نتائج بحثه، ويؤكد على أن الحوار بين الديانات هو الطريق الوحيد لتعميق فهم الذات وخاصة بالنسبة للإسلام الذى ينبع من ذات المنبع الذى صدرت منه اليهودية والمسيحية.

أحمد غريب